غيداء طالب

نساء في مهب الحب

مجموعة قصصية

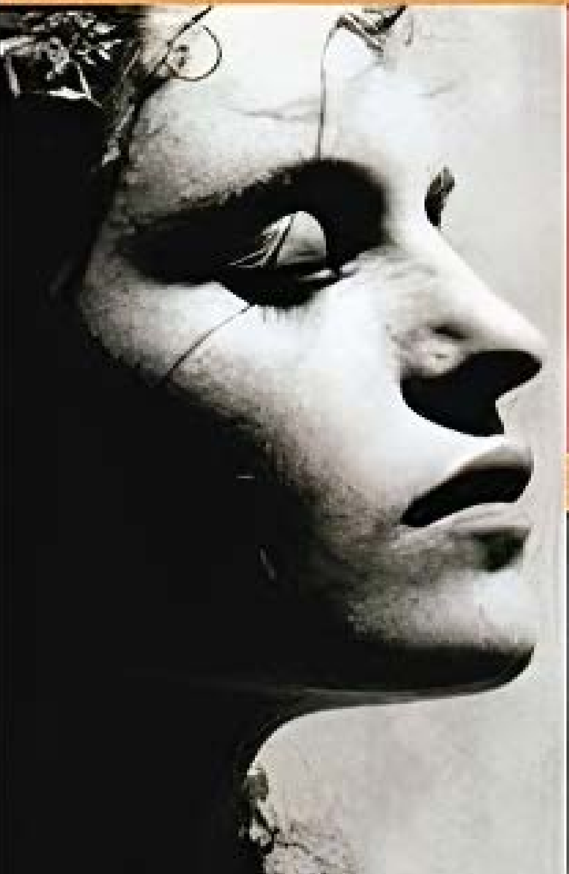

الفارابي

مكتبة نوميديا

نساء في مهب الحب

(مجموعة قصصية)

تأليف

غيداءطالب

دار الفارابي

الكتاب: نساء في مهب الحب

المؤلف: غيداء طالب

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي . بيروت – لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى:2012

ISBN: 978-9953-71-844-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:

www.arabicebook.com

إهداء

إلى عينيك... يا أبي

وإليكِ أنتِ...

يا أحلى النساء

الحب جزء من وجود الرجل،

لكنه وجود المرأة بأكمله.

بيرون

قد يكون الحب هو العذاب...

ولكن الحرمان من الحرب هو الموت.

شكسبير

الحب هو تاريخ المرأة وليس إلا حادثاً

عابراً في حياة الرجل.

مدام دوستايل

والأذن تعشق أحياناً

هكذا بدأت قصتها معه ذات مساء... بكبسة زرٍ على حاسوبها، و«like» أسفل جملةٍ له في صفحة إحدى قريباتها على ال. «facebook». لفتها يومئذ تعليقه الساخر، وراقتها لغته العربية التي باتت غريبةً عنها منذ زمنٍ بعيد. لوهلةٍ أولى، بدا لها خبيراً بطباع النساء ومكرهن. ومع أن تعليقاته لم تنمَّ عن أي حسٍّ رومنسي قد يستهوي الجنس اللطيف، إلا أنها استشعرت في كلامه دفئاً خاصاً، ورقياً عالي النبرة...

هو... سليل الاغتراب بلا منازع. تناقلته مقاعد الطائرات طويلاً، ورمت به من بلدٍ إلى بلد. صارعته الحياة فصارعها، وعجنته بين يديها بقسوة، فاحتال عليها حد المساكنة...

وهي ابنة المنفى... ولدت من رحمٍ معارضة حتى النخاع، فقذفتها رياح السياسات العربية مع عائلتها على شواطئ أوروبيةٍ باردة الرمال، وسط زوبعةٍ من الأحكام الاستبدادية، والنفي العشوائي الجائر. وهناك، في صقيع الغربة، راحت ترسم كل يومٍ شمس بلادها بألوان لا عدّ لها ولا حصر. تنثرها دفئاً هنا، وتزرعها قمحاً هناك، ثم تجلس بمحاذاتها، تستظل بفيئها مرةً، وتمتلئ بها مطراً مرةً أخرى. ولكن المؤسف أنها عندما كانت تفتح عينيها، لم تكن ترى أمامها سوى جدران غرفتها، وبعض ألوانٍ زيتيةٍ بعثرتها ريشتها على مساحةٍ بيضاء باردة، برودة الثلج المكوَّم على أطراف الطرقات...

في اليوم التالي، جلست تطالع صفحتها على ال.«facebook» كالمعتاد، ففوجئت

باسمه، وبالخط العريض، يطلب ضمها إلى قائمة أصدقائه. اعتبرتها مكافأةً لها على إعجابها برأيه بالأمس، إلا أنها شعرت بإحساسٍ غريبٍ يداعب قلبها. بسرعة، وبدون أي تفكير، راحت إصبعها تضغط على زر «confirm» وتوافق موافقةً شديدة اللهجة.

وانطلقت منذ ذلك الحين رحلة تقصِّيها عن حسبه ونسبه وأصدقاءه ومعارفه وكل من يمت إليه بصلة، حتى آخر اسمٍ في قائمته... فتشت فوراً في مجموعة الصور لديه عن كل جديده، وكل قديمه، ووجدت نفسها أمام صورةٍ حديثةٍ له في العمل. راحت تحدق ملياً إلى تفاصيل وجهه، وإلى خطوط جبينه وغمازتيه. كان وسيماً جداً، يفيض شباباً وحيوية. توقفت طويلاً عند لون عينيه. كان فيهما إغراءٌ عجيب... بريقٌ يلمع فوق مساحةٍ قاتمة السواد، لم تر في حياتها مثيلاً لها... كان سواد عينيه أشبه بليلٍ مقمرٍ من ألف ليلةٍ وليلة، صافياً ودافئاً دفء الربيع في أحراش بلادها...

لم تفهم سر انجذابها السريع إلى وجهٍ لم تصادفه يوماً حتى في أحلامها، على الرغم من أنها تشعر في أعماقها أنها التقته في عالمٍ ما، وفي لحظةٍ ما، وأنها حتماً تعرف الكثير عن عينيه...

كانت البداية الكترونيةً مئة في المئة، بعيدةً عن كل أنواع العواطف وصفاتها وفئاتها ولكن... من قال إن التكنولوجيا الحديثة عاجزةٌ عن قلب المقاييس وضخ العواطف في عمق الآلات الباردة، فحتى لوحة مفاتيح الحاسوب كانت تستشعر نبض قلبها عندما كانت تكتب له، فتميل الحروف طوع يديها وتتسابق الكلمات اليه.

في البدء، كانت تتأنى كثيراً في اختيار تعليقاتها، وصوغ جملها على صفحته أو تحت صوره. ثم شيئاً فشيئاً، بدأت تتخلص من جديتها معه، ومن تلك الهالة التي

أحاطت نفسها بها، خصوصاً وأنه كان يتمتع بحسّ فكاهيّ على درجةٍ رفيعة، وسرعة بديهةٍ جذابةٍ إلى أقصى الحدود.

لطالما سألت نفسها عن طبيعة إحساسه بها، وعن مدى لهفته لقراءة تعليقاتها. تساءلت كثيراً إن كان فكّر مرةً في مشاهدة صورها مثلاً، أو صور لوحاتها؟ وفي أي زاويةٍ من زوايا قلبه تراه أدرج حروف اسمها؟ في زاوية الأصدقاء، أم المعجبات، أم عابري الوقت الضائع؟

لطالما عاتبت قلبها على مدِّه العاطفي الذي لا جزر له. وعلى حبّ أحادي الأطراف، فكيف السبيل لمدِّه بطرفٍ آخر، كيما يتوازن ويستقيم وجوده؟

ربما كانت سعيدةً بصداقته المفاجئة، بصراحته، بتلقائيته وثقافته، ولكنها كانت تبحث معه عن شعورٍ آخر، وعن حنينٍ مختلف.

استفاقت ذات صباحٍ على أحلى معايدةٍ تلقتها في حياتها. كان يتمنى لها بالفرنسية صباحاتٍ يملؤها الدفء، وأياماً تفيض نوراً وحبوراً... كان بريدها الإلكتروني يغص يومئذ بالعبارات الجميلة والتمنيات بالعمر المديد في ذكرى ميلادها، إلا أنها استشفت في جملته المقتضبة تلك، صدقاً لا يمت إلى المجاملات بأي صلة. لم تنتظر طويلاً، وبعقلٍ أوروبي يستثمر الوقت ويقدسه، ردت عليه سريعاً بشكرٍ يتجاوز الشكر بأشواطٍ قليلة، طالبةً منه رقم هاتفه الشخصي...

رن هاتفه سريعاً واصطفت على شاشته أرقامٌ أوروبية التسلسل، مجهولة العنوان، فكانت هي... صوتاً غارقاً في الأنوثة، كسول الوقع، ذا لثغة مثيرةٍ بحرف الراء، ولكنةٍ عربيةٍ بإضافاتٍ غربية...

كان في أسلوب تعارفهما الهاتفي الكثير من الانجذاب الواضح دون تفسيرٍ محدد، أو

ربما على قاعدة «الأذن تعشق قبل العين أحياناً»... ربما استهواه منذ البداية خجلها المرتبك، أو غموضها الآسر. فبدت له فتاةً على قدرٍ كبيرٍ من العمق والحزن في آنٍ واحد. أما هي فلم تتفاجأ بذكائه وقوة حضوره. كان يحدثها كما دائماً، بثقةٍ واضحة، ويستعرض على مسامعها بين الحين والآخر بعضاً من سخريته المحببة.

كان إحساسها به يقظاً منذ اللحظة الأولى، إحساساً يفوق الإعجاب والصداقة وربما الحب أيضاً. كأن تشعر أنك أمام شخصٍ تريد أن تمضي الوقت بأسره إلى جانبه، أو أن تسهر طول الليل في أحضان صوته. كأن تشعر أنك جاهز لأي مغامرةٍ معه، مستعدٌّ لأي حتفٍ على يديه... كأن تستشعر الارتياح التام في حضرته، والاستمتاع التام بحديثه، فإذا ما سكت أوجعك صمته، وإذا ما رحل استعمرك الفراغ.

هكذا كانت تشعر تماماً كل مرةٍ كانت تهاتفه فيها، إنه شخصٌ قريبٌ منها حد اللمس، مع أن المسافات التي تفصل بينهما تتعدى حدود الصحارى والبحار. شعورٌ قد يصعب وصفه ويتعذر فهمه، ولكنه يتوغل عميقاً بين أوردتنا، يتجذر فينا رغماً عنا ويستشري كالوباء في كل ذراتنا...

إنه الحب... صوتٌ ذو ملامح دافئة، يأتيها كل صباحٍ ممتلئاً بشمس الصحراء، فيحملها عبر الهاتف، ويجول بها في عوالم لا حدود لها. يجتاز بها جسوراً شاهقة العواطف، باذخة الهوى، ويمشي بها على رمالٍ لن تطأها يوماً سوى أقدام العاشقين... فهل يمكن للمرءِ أن يصحو ذات صباح ويجد نفسه مغرماً بشخصٍ لم تره عيناه، ولم تلمسه يداه؟

شخصٌ يهوى لعبة العواطف المتقاطعة، ويعرف كيف يملأ مربعاتها الفارغة بكلماتٍ وردية اللون، وموسيقية الوقع... فكم يلزمها من التمارين كيما تجاري ذكاءه العاطفي؟

وكم يلزمها من الثبات كيما تقاوم صوته حين يلفظ اسمها بنبرةٍ رجوليةٍ آسرة؟

أما هو... فلم يكن يبذل أي مجهودٍ إضافي كي يبقي أشواقها في حالة تأهبٍ مستمر. كان عفوياً جداً، وصريحاً جداً. وعلى الرغم من الكلام المعسول الذي كان يرشه من وقتٍ لآخر على طبق حنينها الساخن، إلا أنه لم يكن يبالغ في التعبير عن مشاعره نحوها، أو في التغزل بجمالها مثلاً... كان يعلم تماماً أنها فتاةٌ عادية الشكل ومألوفة الملامح، لكنه كان يشعر أنها دافئة الروح، عميقة الفكر وراقيةٌ بدرجة ممتاز... لم يتخيل يوماً أنها كبقية النساء مثلاً، قد تتوسط حلقة نميمةٍ صباحية، أو تنتظر دورها كي تقرأ لها إحداهن حظها المتواري في فنجان قهوةٍ على الطريقة العربية. كان لصورتها في عينيه بريقٌ يختلف عن كل ما لمع أمامه ذات يومٍ في وجوه من عرف من نساء، مع أنه لم يلتقها بعد... لكنه كان يستشف في صوتها براءةً ملائكيةً عجيبة، لا طاقة له على مقاومتها...

كان يشعر أحياناً أنها أوروبية الطباع إلى حدّ ما، غربية العقلية ربما، ولكن بدفءٍ شرقي الملامح، وهذا سببٌ مباشر في انجذابه نحوها. فلطالما أعجبه ذلك المزج اللذيذ الذي كان يضفي على شخصيتها بريقاً فاتناً.

استمرت بينهما لعبة العواطف المستترة أياماً وشهوراً... كان أسلوب التلميح سيد الموقف، وكأن كلاً منهما ينتظر التصريح من فم الآخر كيما يجود هو باعترافاتٍ أثقلته. كانا يتحادثان يومياً عبر الهاتف أو عبر الانترنت، وكلما طال بينهما وقت الحديث، أسرع الشوق في الفتك بقلبيهما بعد انتهاء المكالمة. وهكذا... حتى استطاعت هي ذات يوم أن تضرب على وتر أشواقه، وتستغل نقصاً موقتاً في مناعته العاطفية، فانتزعت منه اعترافاً برغبته العميقة في الارتباط بها...

اعترافٌ أثلج قلبها ودغدغ غرورها الأنثوي. ومع أنه كان متوقعاً إلى حدٍّ ما، إلا أنه أربك تفكيرها، وشغلها بعض الشيء عن لوحاتها وريشتها... هي التي كانت تلجأ إلى ألوانها كلما أتعبها التفكير، لم تعد تجد فيها اليوم أي سكنٍ لها... لم تجد فيها سوى بعض ظلالٍ ذكورية، قد تكون بداية لوحةٍ صاخبة ستحمل ذات يومٍ توقيع عينيه.

اتفقا أخيراً على لقاءٍ قريبٍ سيجمعهما للمرة الأولى وجهاً لوجه، وقلباً لقلب. سيذهب إليها أخيراً وسيلتقيها للمرة الأولى، على أرض الغربة التي لا يعرفان متى الشفاء منها، فمتى كان للغربة رغبةٌ في جمع شمل العاشقين؟ سيذهب إليها أخيراً، على الطريقة الشرقية، كما يذهب عريسٌ إلى عروسٍ انتظرته دهراً بأكمله...

تباطأت وتيرة الأيام التالية وهما مأخوذان بالانتظار. كان في التأشيرات الأوروبية بعض العراقيل عندما يتعلق الموضوع بجواز سفرٍ عربي. فكم من العمر يُهدَر خلف أبواب المهجر، وكم من الجهد يراق في سبيل ختمٍ أجنبي...

أرهقها انتظاره، وأتعبها التفكير في لهفة لقاءٍ أول. كانت تهرب من التفكير فيه، إلى رسم ملامحه وتدوين أسرار ابتسامته، حتى أنهت لوحته في وقتٍ قياسي وكأنها كانت تجمع أجزاء وجهه في لعبة «بازيل». كانت تأنس بوجوده معها، في غرفتها، بين أشيائها الحميمة، وإن داخل إطارٍ خشبي... تجالسه كل مساء، تروي له حكايات طفولتها اليومية، وتنتظر أن يبادلها هو أيضاً مغامراته الصبيانية. ففي عينيه شقاوةٌ مخضرمة، تختصر ماضيه الطفولي الحافل، وتعيده في لحظةٍ طفلاً متمرداً، يملؤه الجنون...

أخيراً... ابتسم لها القدر معلناً قدومه. سيأتي أخيراً... يا كل الشوق الذي اختمر طويلاً في كل شرايينها، سيأتي... يا كل أحلامها التي عانقت ابتسامته ليالي

بأكملها، سيأتي... غداً، سيأتي. وسترسم الحياة لها هذه المرة لوحةً ثنائية الملامح، وبألوان ربيعية.

أشرقت شمسها ذلك الصباح من بين جدران المطار... من ممراته التي لا يبدو لها اليوم نهاية، ومن زوايا قاعاته المرتقبة بصمت. كانت تنتظر وصوله بلهفةٍ واضحة، فاضحة، ومربكة وكأن جميع الحاضرين معها في تلك القاعة، يتابعون أحداث قصتهما بشغف. كأنهم يقرأون بين سطور أفكارها جنوناً منَكَّهاً برغبةٍ شرسة، ويتوقعون بين لحظةٍ وأخرى انفجاراً عاطفياً زُرعَت عبواته في أعماق عينيها.

إنه الانتظار... داخل أسوار الوقت... وازدواجية الشعور... وتراكم الأفكار... فيا ليته يدري ماذا تفعل بها لحظات انتظاره. كيف تشعلها، كيف تحرقها وكيف تنهيها... في عتمة عينيه... عيناه... هل هذه عيناه؟ تطلان من بعيدٍ كفجرٍ وليد؟ أيعقل أن يكون هو؟ وهل هذا بريق طلته؟ كانت عيناه تبحثان عنها في زحمة الوجوه... وسرعان ما اهتدى القلب إليها...

أقبلت عليه ووقفت في دائرة استكشافاته الأولية. مصافحةٌ خجولة وباقة ورودٍ مخملية أتعبها الانتظار... كلماتٌ قليلة وبعض خطواتٍ في ممرٍّ عابقٍ بنسمات عطره. لم يكن عطراً مألوفاً بالنسبة إليها، لكنه عطرٌ يشبهه إلى حدٍّ بعيد، دافئ كلون عينيه، جذابٌ وجريءٌ حد الجنون...

كانت تمشي بمحاذاة صمته، مذهولةً بطول قامته، مأخوذةً بابتسامته المربكة، وهي تحاول أن تقرأ في عينيه كل الأفكار التي خطرت بباله لحظة رآها. فلم يكن لرد فعله دلالاتٌ واضحة. لم تشعر بانبهاره الذي كانت تحلم به، ولا باللهفة المجنونة التي كانت تتوقعها منه...

كان يبدو لها هادئاً، ومتماسكاً، فيما ترتعش هي فرحاً وخوفاً وشوقاً، من رأسها إلى أخمص قدميها.

استقل معها سيارتها الصغيرة واتجها نحو المنزل. كانت نسائم الصباح الباردة تتغلغل فيهما، وتنعش حديثاً بدأ تواً، متقطع الأوصال. فغالباً ما تكون حالة الطقس هي المخرج الأفضل والأسلم عندما نعلق في نفق الأحاديث المرتبكة، مع شخصٍ لا نعرف كيف نمسك بخيط أفكاره.

بدا لها مستمتعاً بما حوله، مذهولاً بالمظاهرالأوروبية الحضارية التي لا تجمعنا بها أية قواسم مشتركة. كان يحدثها عن الواقع الذي يعيشه العرب عموماً بكثيرٍ من الحزن، ويحوك المقارنات بسخريةٍ مؤلمة.

ثم... حطت العربة رحالها أمام المنزل بتوقيتٍ صباحيّ شتوي.

كانت تسكن في الطابق الثاني، شقةً صغيرةً يؤثثها الدفء البنفسجي الهادئ وذوقٌ نسائي بامتياز. كانت اللوحات تعتلي جدران الصالة، وورودٌ ربيعيةٌ تتوزع في الزوايا، وتكسر صمت الوحدة.

جلس على الأريكة المقابلة لها، على مسافةٍ كافيةٍ لرصد ارتباكها، وراح يتأمل بهجتها وهي تعدّ له وجبة الفطور. قامةٌ قصيرة ونحيلةٌ، شعرٌ عربيٌّ بسواده الكثيف، ووجنتان لونهما الخجل من نظراته التي كانت تتفحصها نقطةً نقطة...

كانت تتمتع بوجهٍ هادئ الملامح، خالٍ إلى حدٍّ ما من أي شحناتٍ خطرة أو ذبذباتٍ جاذبة قد تتسبب مثلاً بانقطاع نفسٍ ذكوري، أو بإشعال حريقٍ داخلي في قلب رجل...

أسعدتها نظراته وهي تعتلي كل مرتفعات جسدها، ثم تعلو وتهبط بمهارةٍ مدروسة...

أربكتها، وأيقظت أنوثتها. تراها أعجبته؟ وهل تطابقت صورتاها في عينيه، أم أن الواقع فاق أحلامه حسناً؟ وماذا لو كان يتوقعها بشكلٍ آخر، ولونٍ آخر، وعبقٍ آخر؟ كيف ستتمكن من استنطاق أفكاره وانطباعاته عنها؟

كان الفطور أوروبي الوقع والشكل والطعم. طاولةٌ صغيرةٌ وكرسيان... سنتيمتراتٌ قليلةٌ تفصل بين جسديهما. ومع ذلك، كان الاقتراب محظوراً دون أي حظرٍ حقيقي. كان الهدوء يكتنف الجلسة بمجملها... شعرت وكأن من يجلس أمامها الآن لا يمت بأي صلةٍ إلى ذلك الشاب الذي كان يحدثها ليالي بأكملها عبر الهاتف. كان هادئاً وشبه صامت، وكأن البرود الأوروبي انتقل إليه بالعدوى، وانتزع منه حيويته واحتجزها في المطار بتهمة المشاكسة، بانتظار وقت المغادرة، حيث يمكنه عندئذ فقط أن يستعيدها كاملةً. ومع أنها كانت تخبئ له الكثير من الكلام والكثير من الاعترافات العاطفية إلا أنها وقفت أمامه مكبلة الشفتين وقد فرغت جعبة حكاياتها من محتواها.

ماذا تقول له؟ إنه فاق توقعاتها حضوراً ووسامةً وذكاء؟ بماذا تصارحه؟ بأنها لم تخشَ شيئاً في حياتها كخشيتها لقاءه، وأنها ربما لن تندم على شيءٍ في حياتها إلا على خسرانها حبه؟ حاولت في البداية أن تأخذ الموضوع على المحمل الحسن، وأن تعطيه فترة راحة، فقد يكون مجهداً بفعل ساعات السفر الطويل، ولكنها كانت تشعر في أعماقها بحاجزٍ يفصل بينهما، لا علاقة له بشعوره بالإرهاق الجسدي. حاجزٌ شاهق، كُتبَ عليه بالخط العريض، «الاقتراب ممنوع، خطر الحب»... ولكنها لم تكن تشعر بأنه يخشى حبها طوال الفترة السابقة، فلماذا يتردد الآن؟ ولماذا اتشحت عيناه فجأةً بالبرود؟

شعرت بشيءٍ من الإحباط يتسلل إلى أعماقها رغماً عنها... يحاول أن يكدر فرحتها

بوجوده. فحاولت أن تبقي على ابتسامتها ملتصقةً بشفتيها. ولتمعن في التمثيل، تقمصت دور اللامبالية، وعرضت عليه أن تقله ليستريح في الفندق حيث تنتظره غرفةٌ حجزتها له مسبقاً بناءً على طلبه.

كانت تحاول أن توحي له بأنها طبيعيةٌ تماماً، وكأنها لن تستجدي أشواقه ولن تستعطفه ليبقى معها وقتاً أطول. فما زال العنفوان بنسخته العربية، وبرغم كل تناقضاته، يسكنها... ولن تحاول البحث عن بدائل أوروبية بنسخٍ أكثر تطوراً...

أما هو، فلم يناقش اقتراحها، ولم يتردد في الموافقة... ووجدت نفسها وحيدةً من جديد، وهي تراه يأخذ أمتعته من السيارة ويتوجه نحو الفندق. كان الوقت قد قارب الظهر. تبعثرت أفكارها أمام عينيها وداهمتها الكآبة على عجل. فشعرت برغبةٍ عارمة في البكاء... ولكن لماذا؟؟؟ فكل ما حدث حتى الآن كان متفقاً عليه مسبقاً. تراها اعتقدت أنه بمجرد أن يراها سيركع أمامها شغفاً وسيؤدي لعينيها فروض الطاعة العشقية؟ ألم يخطر ببالها احتمالٌ ضئيل بأنها قد لا تنال إعجابه كما تتمنى، أو أنه لن يكون بمستوى أحلامها مثلاً؟

وهطل المطر دون موعد... وجرفت سيوله دموعاً تساقطت غزيرةً على خديها، معلنةً قرب النهاية. كانت تلك المرة الأولى التي تقرأ فيها قصةً بدأها الكاتب بالنهاية مختزلاً كل البدايات، دون أن يعبأ بأدوار أبطالها وأدائهم، ولا بتتابع أحداثها وحبكتها... فكانت الأسوأ على الإطلاق...

حملتها قدماها فجأةً ورمتا بها عند أطراف البحيرة المجاورة، حيث يرابض الحنين، منزوع القوى. كانت في ذروة الحزن، ولا طاقة لها حتى على الشكوى فصمتت، والآهات تتصارع داخلها... راحت تحاكي الطيور سراً، وهي تحاول أن تفكر في

سيناريو مناسب قد ينقذ غرورها الأنثوي، ويلملم ماء وجهها الذي سيريقه عن غير قصد، رفض فارسها المتوقع... ولكن، ما من أفكار واضحة في هذا الضباب المتزاحم أمامها. ربما عليها المبادرة بالهجوم، وإعلان عدم رغبتها في الارتباط به تفادياً للإحراج، فهذا أفضل الحلول حتى الآن. وسترى حينئذ إلى أين ستجرها حبال الأحاديث غير المتوقعة مع رجلٍ غير متوقع المزاج...

أما هو... فقد لاذ بصقيع غرفته، في ذلك الفندق المتواضع هرباً من نار تساؤلاتها الصامتة. كان يبحث في قاموس العواطف والمشاعر عن مفرداتٍ لإحساسه بها... عن تفسيرٍ لشعوره الغامض لحظة رآها. كان إحساساً غريباً بالنسبة إليه، لم يعرفه قط، ولم يستطع حل لغزه... هل كان فتوراً أم بروداً؟ هل كان خيبةً أم ندماً؟ هل كان شفقةً أم حرجاً؟ لم يجد الإجابة الشافية، ولكنه حتماً ليس الحب. كان على يقينٍ من ذلك... فللحب شرارةٌ لا يخطئها قلب، وعبقٌ يخترق كل مسامات الوجود، فلماذا لم يستنشق عبيره؟ ولماذا لم يشعر برغبة العشاق في احتضان معشوقهم عمراً، و تقبيله دهراً؟ لماذا لم ترتجف يداه لحظة صافحها، ولم يشتعل قلبه فرحاً أمام ابتسامتها؟ أسئلةٌ حائرة تحوم في فضاء أفكاره. ربما كانت أنثى الصفاء... امرأة أكثر براءةً مما اعتقد، أو أقل أنوثةً مما توقع... ربما كانت باذخة الخجل، مفرطةً في الهدوء حد الملل، أو ناصعة التفكير كطفلٍ صغير... وربما كانت تفتقد ذلك التوقد الذي يغري الرجال عادةً ويلهم أفكارهم، فيستفيضون بأحاديث مشتعلة، واعترافاتٍ ساخنة...

هي حتماً فتاةٌ من عالمٍ آخر، بعيدٍ تماماً عن مركز اهتمامه، ومختلفٍ كثيراً عن طبيعة محيطه. لم يفهم سر انجذابه الغريب لها على الهاتف، فيما هي في الواقع شيءٌ آخر. وهل يختلف إحساس المرء إلى هذا الحد بالأشخاص والأشياء من وراء حجبٍ ...أو هاتف؟ تساءل كيف كان لإحساسه أن يكون لو أنه التقاها وجهاً لوجه

قبل التعارف الهاتفي؟ هل كان سيرغب في الارتباط بها فعلاً؟ هل كان سيعيش وهم حبها؟

أفاق من أسئلته على واقعٍ مربك وهو أن عليه الاختيار بين طريقين كلاهما صعبٌ وشاق. فإما أن يستمر في ما بدأه معها عبر الهاتف ويرتبط بها فعلاً حتى يشاء الله أمراً كان مفعولاً، وإما أن يلوذ بالفرار، ويرمي بها في أتونٍ من عذابٍ ومرارة...

ألقى بأفكاره جانباً ورمى بنفسه فوق السرير مستسلماً لجحافل النوم القادم بزخم...

ترافقت ساعات المساء مع موجاتٍ من البرد العاصف والحزن الخانق. لم يتصل بها منذ وصوله إلى الفندق. فالتهمها الفضول... ماذا عساه أن يفعل الآن؟ هل ينام؟ كل هذا الوقت؟

كانت تنتظر هاتفه على أحر من الجمر، مع أنها لا تدري بأي وجهٍ ستقابله، ولا بأي كلامٍ ستبدأ حديثها معه. كانت تخشى أن تخذلها الجمل ويغلبها الحنين.

وعند التاسعة تماماً بتوقيت شوقها رن الهاتف، مثقلاً بسحب صوته. كان يبدو مبتهجاً، ومستمتعاً بحديثه معها. لم يُطل الكلام... كان في انتظارها على العشاء في مطعمٍ يتوقعه فاخراً بالقرب من الفندق. لم تسرف في تبرجها ولم تهدر الكثير من الوقت أمام مرآتها وألوانها. كانت ذخيرتها معطفاً أسود، وهو لونه المفضل، وبعض زخاتٍ من عطر «ديور» على جسدها وشعرها...

اقتربت منه وهو غارقٌ بين طرفي جريدة، ألقت التحية بهدوءٍ تام. خلعت معطفها وجلست قبالته، فاردةً أشواقها وابتساماتها... كان يفيض حيويةً ومرحاً وكأنه مخلوقٌ ليلي لا يصلح إلا للأوقات المسائية. تأملها بتفصيلٍ ممل، وصالت عيناه وجالتا في مساحة وجهها الصغير وملامحها الطفولية التي تختزن الكثير من البراءة. كانت

تبحث في نظراته عن لهفةٍ ما، أو عن رغبةٍ ما... ربما كانت تستشعر دفئه بين حينٍ وآخر، وتصطدم بنكتةٍ هاربة بين جملةٍ وأخرى. ومع أن مزاجه بدا لها مختلفاً عما كان في الصباح، إلا أنها لم تحظَ بضالتها المنشودة في عينيه... ثمة بريقٌ لا تصدره سوى عيون عاشقة، وثمة احتراقٌ لا يشعر به سوى جسد ألهبه الغرام. وهي لم تلمح أي بريق في عينيه، ولم تلمس أي احتراق في كفيه، وكل الابتهاج الذي يضفيه حضوره على الجلسة لا يعدو أن يكون قناعاً يداري به شعوره بالخيبة. ومع ذلك تناولا العشاء معاً على وقع أخباره الساخرة، ونكاته المزروعة ألغاماً مخجلة. أربكها مرحه الذي لم تستطع أن تجاريه، واشتعال حضوره الذي كان يلتهم المكان برمته...

قارب الوقت منتصف الليل فأصبحت كسندريلّا، تطالع ساعتها وكأنها على عجلةٍ من أمرها. استعدت للمغادرة ببضع كلمات، فانسحبت يده فجأةً من علبةٍ مخملية صغيرة، وأخرجت خاتماً ذهبياً ينم عن ذوقٍ رفيع. لم يكن خاتم زواج طبعاً، بل عربون صداقة... قدم لها الهدية دون أن يلامس يدها ودون أن يرهق تنهداتها. فكان الخاتم مفاجأة السهرة ومسك الختام...

غادرته على عجل دون عناقٍ أو مصافحة، واصطفت النظرات فوق النظرات من شباك سيارتها وكأنها تقول له «استبقني قربك، لا رغبة لي في الرحيل بعيداً عنك، أريد أن أمضي الليل على إيقاع ضحكاتك، استبقني أرجوك...» ولكنه لم يقرأ سطور عينيها وتركها وحدها مع الليل، يتسامران كعاشقين ومضى...

كان طريق العودة إلى المنزل طويلاً على غير عادة، مليئاً بمطبات الألم والإحباط. لم تغادرها عيناه لحظةً واحدة، وكأنهما ارتسمتا في أحداقها... وعادت إلى منزلها، تجر أذيال الخيبة المرة. حاولت الاستسلام لوسادتها، لكن ابتسامته المزروعة في زوايا ذاكرتها أرقت نومها، وأيقظت أفكارها... حاولت أن تعثر على عبارةٍ في غمرة

حديثه المتشعب، قد تعطيها أملاً حقيقياً أو توحي لها بشعور حبٍ متوارٍ خلف كلمات، ولكنها عادت فارغة اليدين... نظرت إلى صورته المعلقة أمامها على الحائط... كم تحبه، وكم يمعن في إيلامها... فانهمرت دموعها...

استيقظ في الصباح على طرقٍ خفيفٍ على باب غرفته. كان عامل الفندق قد أحضر له طرداً مغلفاً بورقٍ بنفسجيّ. استنتج على الفور أنها هديةٌ منها، أرسلتها إليه رداً على خاتم الأمس، لكنه لم يتوقع المضمون... فتح الطرد بسرعة، وتسمرت عيناه وسط لوحةٍ لم تكن سوى صورته... كانت الألوان تتمازج فيها بانصهارٍ عجيب، وتكشف في الوسط عن عينين دافئتين، لو أمكنهما لنطقتا ولهاً وسحراً، وابتسامةٍ بلون الشفق البعيد... كانت اللوحة مرفقةً برسالةٍ صغيرة، لم يتردد في قراءتها، وسرعان ما ارتسمت الدهشة على ملامحه وضاعت أمام عينيه الحروف...

عزيزي...

لست أدري حقاً إن كنت قد استعجلت خطواتي بعيداً عنك... ولست أدري إن كان يحق لي وحدي أن أحاكم مشاعرنا، دون استشارة قلبك، ولكن... لم يسعني الانتظار أكثر.

عندما التقيتك بالأمس، كانت كل دروبي مملوءةً بالياسمين لأجلك، تنتظر أن تعبرها قدماك، كي تعبِّدا أشواقها... لكنك خطوت بعيداً وتوَّهك المسير.

عندما التقيتك كانت عيناي تغمضان سراً على طيفك الساكن فيهما منذ وقت، تدللانه، تهدهدانه وتحيطانه بسياجات من ذهب... ومع ذلك اختار الرحيل بعيداً، خوف الحصار.

عندما التقيتك، كنت أرتل بصمتٍ مزامير حبك، وأردد أدعية العاشقين على مسامع

قلبك... ولكنك لم تعبأ بكل ما دعوت، ولم تعرني حتى أذناً صاغية وليس قلباً عاشقاً...

كانت عيناك بالأمس تبحثان في عيني عن الأنثى التي قطعتَ لأجلها البحار، فلم تجدها... وكنت تفتش عبثاً، في كل ذراتي، عن الشرارة التي ألهبت ذات يومٍ قلبك عبر هاتف، فأطفأها برد اللقاء...

عزيزي... لن أطيل عليك الوصف ولن أرهقك بحكاياتي الساذجة، ولكني سأعتذر لك عن كل الوعود التي قطعتها لك سابقاً، وعن كل الأحلام التي رسمت حدودها معك. ربما كنتَ الحلم الوحيد الذي تمنيتُه حد الهوس ونذرتُ له النذور المستحيلة، ولكنك ستبقى حلماً... مجرد حلم... ولن أطمع منك في المزيد... فبعض الأحلام تفقد حرارة وجودها بمجرد أن تمسها يدنا، وتحيلها كومةً من رماد... وأنا لا أريد أن أخسرك، بل أريدك دائماً... حياً في كل أحلامي، حاضراً مع كل أشيائي، ومرافقاً لكل أمنياتي...

عزيزي، لست أدري بما ستجيب لو سألتك عن شعورك بي لحظة التقينا، ولا أريدك أن تجيب، لأني لا أريد لك أن تكذب أو أن تجمل الحقائق... ربما شعرتَ بأني لم أكن على قدر أحلامك، ولم أُثر ضجيج مشاعرك، ولا صهيل أشواقك... ولكني واثقةٌ تماماً بأنك عثرت فيَّ على الصديقة التي كنت تتمناها دائماً... تلك التي نشكو لها غضب دهرنا وغدر أيامنا، ونبكي على صدرها لوعة حبنا... سأكون هي، صدقني، تلك الصديقة الصادقة، ولن أخذلك كما فعلتُ يوم ظننتني الحبيبة العاشقة... لن أخذلك، أبداً... ولن أطلب منك تعويضاً عن أي ضرر لحق بقلبي، لأنك لست السبب. فأنت أيضاً ضحية، مثلي أنا تماماً... هو القدر... ربما لم يتواطأ معك عندما قرر أن يكتب قصتنا ولم يعلمك حتى بقراره، فكنا معاً ضحيتي خبثه وتعسفه...

فلترحل بسلامٍ عزيزي، لترحل عن هذا الحب الذي افترضناه حباً، فخاننا. ولا تعاود الكرة، فالحب الحقيقي لا يكفيه صوتٌ عبر أسلاك هاتفٍ خداع، ولا تكفيه جملٌ نُمِّقت حروفها على شاشةٍ الكترونية... الحب يحتاج إلى دفء العيون كي تتألق نيرانه.
الحب يا عزيزي يحتاج إلى قلبٍ ملاصقٍ لقلبك، توقد بحرارته نيران حبك وتتدفأ على جمر أشواقه...

لنفترق بسلامٍ عزيزي ولتعد إلى شمس صحرائك، ولا تندم على كل ما حدث،
فالصداقة أيضاً تستحق العناء وأحياناً تستدعي السفر.

أخيراً، أستودعك هذه اللوحة المتواضعة. كانت أجمل لوحاتي... دللها كما فعلت أنا، حدثها كما فعلت أنا، واعتنِ بابتسامتها، فقد كانت ذات يومٍ سر ابتسامتي...

وداعاً.

على مفترق الحب

ارتعشت يداها وهي تمسك بالقلم... للمرة العاشرة ربما، تصارع تلك الورقة... تحاول أن تلوث بياضها المستفز بحبر جنونها المرتعش... لكنها في كل مرةٍ كانت تعجز تماماً، فتتثاقل الكلمات على السطور، وتهرب منها الأفكار.

تناولت حاسوبها عله يساعدها على ترويض الكلام، عله يمارس جبروته وينسيها حميميتها مع الأوراق والأقلام والجمل. فلطالما كان بارد اللمسات، فاتر الإحساس وهذا ما قد يساعدها على أن تبدأ رسالتها بتوترٍ أقل وببعض الصدق مع نفسها... ومعه... هو...

ستكتب إليه اليوم... للمرة الأولى، والأخيرة طبعاً. فبعد كل ما ستقوله له، لن تجرؤ على النظر في عينيه، ولن يمكنها يوماً الاختباء من طوفان غضبه، أو حزنه، أو كليهما معاً. قد تستطيع المرأة أن تواجه غضب الرجل. أن تمتصه بذكائها، وبضعفها. أما الحزن، فتلك المعضلة...

كيف يمكنها أن تواجه رجلاً حزيناً، معطوب المشاعر؟ بأي حذرٍ ستلامس حافة نيرانه؟ كم يلزمها من المهارة كي تنظف جرحه من سموم الحب دون أن توقظ ألمه، وكم يلزمها من الصبر كي تنتشل قلبه سليماً... إلى حدٍّ ما. خالياً من أمراض الحقد والشك والكره...

فجأةً، استعاد الحاسوب نشاطه بين يديها، وبدأ يخط لها أولى كلمات الرسالة. «عزيزي» طبعاً... فهي أفضلها ملاءمةً للموقف. أكثرها ضبابيةً، وأقلها إحراجاً.

عزيزي...

لست أدري حقاً ماذا أقول لك، ومن أين أبدأ؟ فاعذرني إذا خانتني اللغة ولم تسعفني الكلمات. قد تعجب حقاً من جرأتي أو ربما من وقاحتي... سمها ما شئت فلن نختلف اليوم على التسميات والمصطلحات، كفانا اختلافاً....ولكن أرجوك، حاول لمرةٍ واحدة أن تخلع عنك نظارات المنطق وأن تلامس الموضوع بحسّ عاطفي، أنثوي.

أنا لم أعد قادرةً على اختراع كلماتٍ أخرى وارتداء ابتساماتٍ أخرى، فأقنعتي قد نفذ وبالت وأتلفها الجليد الذي يغطينا... والحقيقة أن ليس ثمة ما يجمعنا، وأننا لم يخلق أحدنا للآخر... قد تضحك فعلاً من ذلك وتعتبره إحدى أفكاري المجنونة، ولكني حقاً أؤمن به... أؤمن فعلاً بتآلف الأرواح وانسجامها، هناك، في عالمٍ اول، قبل التقاء العيون والأجساد... وأؤمن بأن قلوبنا تبحث منذ ولادتنا عن سكنٍ لها، عن توأمٍ ولدت معه ومن أجله... وهذا ما يفتقده، كلانا.

أنا أدرك أنك ربما أحببتني فعلاً بعد أن عرفتني عن قربٍ طوال الأشهر الماضية، وأعلم أنك تحاول أن ترضيني بشتى الوسائل وأحياناً على حساب أفكارك ومنطقك. قد لا يبدو في الأمر سوء، خصوصاً وأننا مقدمان على ارتباطٍ أبديّ إلى حدٍّ ما... كما أني لا أنكر مطلقاً أني كنت أشعر فعلاً بوفاقٍ ما يجمعنا، على الرغم من تباعد أفكارنا أحياناً وتناقضها أحياناً أخرى، وأني كنت راضيةً معك وبك. لم أشعر يوماً أن في علاقتنا خطباً ما، على الرغم من ارتباطنا القائم مبدئياً على العقل والمنطق. فقد كانت علاقةً هادئة وواقعيةً إلى حدٍّ ما. إلا أني استفقت ذات صباح، ووجدتني على مفترق رجلين، أحدهما أنت والآخر هو الحب...

هنا بدأت المشكلة، وهنا استعصى علي الحل. تناوبت علي أسراب من الأفكار والمشاعر الكاسرة وافترست طمأنينتي. حاولت أن أقاومها... أقسم لك. قاومت واستبسلت... كنت أحاول أن أضاعف حجمك في قلبي، أن أزيده ثقلاً ووزناً حتى

ترجح كفته في ميزان الحب. حاولت... عاندت أشواقي وقلت لنفسي كفاك تحليقاً هناك، كفاك حيرةً، فهنا ثمة من يريدك، وثمة من عاهدت على الزواج. حاولت كثيراً... إلا أني فشلت. كان فشلاً تاريخياً غير مسبوق والخاسر الوحيد، أنا...

عزيزي، لست أعي حقاً حجم الجرح الذي أعرضك له، وقد لا يكون أكثر من خدشٍ لكبرياء الرجولة عندما تصطدم بلاء الرفض الأنثوي، ولكني أريدك أن تعلم جيداً أني أتركك الآن وفاءً لك... لأني لا أقوى على الخديعة ولا أحترف التمثيل.

عندما التقيته، أول مرة، لم أفكر فيك. لم يستحضرك ذهني، كان كل شيءٍ فيَّ يحوم حوله، يحاكي صمته. واستغربت كيف أنك لم تخطر في بالي حينئذ؟؟؟ شعرت حقاً بأني أخونك... مع أني حتى لم أكلمه، كان مجرد لقاء نظرات عابرة... ومعبرة... أو لعلي ظننتها كذلك في البدء، ولكنها كانت إنذارات حبّ عاصفٍ وحتمي.

قد تسألني عنه...عن سبب انبهاري به، عن ماهية الفروق بينكما. وقد تسألني عن طبيعة إحساسي به، أوعن كمية حبي له...وليس عندي أي جواب... لست أدري، حقاً...

قد يكون أقل وسامةً منك، أو أكثر حزناً... قد يكون أقل ترفاً منك أو أكثر صدقاً... قد يكون أقل حضوراً منك أو أكثر تعبيراً... لست أدري. ولا أحاول أن أبحث عن الأسباب والنتائج، أو أن أقلِّب في المعادلات والحلول. جل ما أريده الآن أن نفترق بأقل الخسائر الممكنة. فلم يبق لنا منا ما يجمعنا... مطلقاً. لا أدري، ربما كان بإمكاننا أن نبقى صديقين، أو حتى مجرد جارين كما كنا دائماً؟ فلنحاول، أرجوك...

عزيزي، ألمح في عينيك الآن شرر الغيرة والغضب. هدئ من روعك فسأجيبك عن كل أسئلتك وأولها، ذلك السؤال البدائي الذي يلوح في رأسك. أين التقيته ومتى؟...

أليس هذا ما يشغلك الآن؟ اطمئن عزيزي، فقد التقينا في أكثر الأماكن أدباً وأقلها حميميةً وصخباً... مكتبة الجامعة...

لم تسألني يوماً عن سبب انشغالي الدائم بالمكتبة ومواعيدها المتكررة؟ أو ربما لم تلاحظ اهتمامي المفاجئ بالمحاضرات والأبحاث؟ أم تراك انتبهت لكنك آثرت الصمت، وألبست ظنونك عباءة حسن النية، وأرجأت الاستجواب إلى أجلٍ غير مسمى؟

نعم عزيزي... مكتبة الجامعة... مكانٌ استفزنا بصمته فأطلقنا فيه كل أبواق الحنين. كنت يومئذ هناك، أجلس بمواجهة القدر، دون انتباه. أنقِّب في المراجع بحثاً عن شكل وعطر ولون «أزهار الشر» لـ«بودلير»، علّي أنهي بحثي الممدد أمامي على الطاولة، كجثةٍ منهكة. وفجأةً، وقعت عيناه في شرك عيني، وفرد الصمت ملاءاته... فكانت لحظة حبنا، وربما خطيئتنا...

كان يزور الجامعة يومئذ، بغية التزود بالمراجع اللازمة من أجل تحضير رسالة الدكتوراه، ولم يكن يدري أني كنت أختزن كل ما كان يبحث عنه.

لم يحدثني، ولم يعرني أي اهتمام... إلا أن عينيه كانتا، بين الحين والآخر، تسرحان كغيمةٍ هائمة في سماء عيني. أعترف بأني لم أحب «بودلير» كما أحببته يومئذ... أعترف بأني لم أعشق عيني كما يومئذ، ولم أهوَ الصمت كما يومئذ. وعدت إليك مساءً أحمل وجهه في أعماقي وأتدثر بابتسامته...

عجيبةٌ هي النفس البشرية في تركيبتها، وفي تناقضها... قد تسألني لماذا هو وليس أنت، مع أنك الشرعي عرفاً والأقرب جسدياً وربما الأنسب ظرفياً؟ لست أدري. ولا تفسير لدي سوى أني أشعر به لصيقاً بروحي... في حضوره ذبذباتٌ سريةٌ تسحبني

مغناطيسياً إليه، ترميني على عتبات عينيه.

لماذا هو؟؟؟ لا أدري ولا يعنيني أن أبدد الوقت في البحث عن جوابٍ لسؤالٍ غيبي، أقلُّه بمنظوري الشخصي، فلدي ما هو الأهم.أريد أن أعيش الحب بكل دقائقه، دون أسئلة ودون اعتبارات... حتى الآن لم أتمكن من ذلك. كلما كانت عيناي تبحران إليه كانتا تصطدمان بأمواج عينيك، وكلما كانت يدي تستسلم لمصافحة أشواقه، كان يوقظها اسمك الذي نقشت حروفه عل خاتمي...

عزيزي، فلتعلم جيداً أني لم أخنك يوماً... أقلُّه جسدياً... حتى أني لم أخلع خاتم ارتباطنا لحظةً واحدة. ولتعلم أيضاً أنه لم يطالبني بأي حب، وبأي ارتباط... كان نبيلاً وشهماً حد الغباوة. كم تمنيت أحياناً أن يثور على هدوئه ورباطة جأشه، أن يعانقني، أن يقبلني، أن يطلب مني مرافقته إلى المجهول. كنت سأذهب... فقط لأكون معه... ولكنه لم يفعل. كانت حرائقه تبتلع كلامه، فتذكي النيران في عينيه...

التقيته في المرة الثانية، في المكان نفسه، ولكن ليس مصادفة. كنت أتوقع مجيئه أو أحلم به. كان عليه أن يكمل بحثه، وكان علي أن أتابع الحلم الذي بدأته عندما ابتسمت لي عيناه أول مرة. لبست أجمل ما لدي، يومئذ، تزينت وتعطرت وكأني على موعدٍ مع الحب...

لماذا تراني لم أشعر يوماً بأهمية عطري وأنا معك؟ أعتذر لك عن قسوتي، ولكنها الحقيقة. معك، كانت الأمور تبدو عاديةً جداً. لا أذكر أني تحيرت يوماً أمام خزانتي وأنا ذاهبة إليك، لا أذكر أني استشرت مرآتي عن نوع كحلي أو عن لون فستاني... ربما لأنك لم تشعرني كثيراً بأهمية الشكل والمظهر، وكنت تبدي إعجابك أكثر بأفكاري وكتاباتي. ترى أيهما كان الأهم؟ ولماذا تراني كنت أنفق الكثير من الوقت

أمام المرآة وأنا ذاهبةٌ إليه؟

لماذا كل هذا الاهتمام الواضح بتسريحة شعري، وبانسداله الكسول على كتفي؟ لست أدري، لكأنها استفاقةٌ عجيبةٌ لكل حواسي ولكل أحاسيسي. كأنه انتشلني من غيبوبةٍ لا بداية ولا نهاية لها...

التقيته ثانية ولم نتحدث. كان يبدو على عجلةٍ من أمره. رمقني بنظرةٍ ملؤها المكر والدفء معاً. غزلني شالاً من الأنوثة ولف به عينيه، ومضى...

أسبوعٌ وأنا أنتظر حتى ملّتني مقاعد المكتبة، ولم يأت. تملكني شعورٌ غريبٌ باليتم لم أستوعبه، واستعمرني الملل.

أيامٌ انقضت، وبلا مقدمات أو ترتيبات، رأيته ذات صباحٍ يعبر بهو الجامعة، متأبطاً صمته وبعض الكتب، خارجاً من مكتب العميد. شلت المفاجأة تفكيري وسبقتني إليه لهفتي.

مر بمحاذاتي مبتسماً، وألقى التحية بهزة رأس، فانفرجت أساريري. ثم أكمل طريقه باتجاه مقهى الجامعة. وقفت هناك، أنظر إليه من بعيد، والأفكار تنهشي.

أأذهب؟ أألحق به وكأن الأمر محض مصادفة؟ أم أنتظر خروجه؟ أم أغادر المكان وألملم شططي؟ بعد دقائق وجدتني أعبر إليه من بوابة أشواقي... بلا وعيٍ مني.

دخلت الكافتيريا وعيناي تبحثان عنه، فوجدته جالساً مع أحد أصدقائي القدامى، يتسامران ويضحكان. اعتلت عيني فرحةٌ عارمة... مررت بالقرب منهما، وابتسمت لصديقي، فسلم علي بحرارة، ودعاني للجلوس ثم عرّفني إلى جليسه، وهذا بيت القصيد...

صافحني بشوق وغرز سهام عينيه عميقاً في كل أجزائي وهمهم ببعض الكلمات

الخافتة.

لم أجالسهما طبعاً، واعتذرت بلطفٍ وانسحبت. كانت يدي لا تزال ترشح دفء يديه. شعرت بالندم لأني لم أستغل هذه الفرصة الذهبية التي لن تعوض ربما واتجهت نحو المكتبة. وما هي إلا دقائق حتى رأيته بقربي، يناديني، و يبدأ معي حديثاً إلى الآن لم ينته...

هكذا بدأت قصتي معه... وهناك تكمن كل خيوط خيانتي لك، بين جدران تلك المكتبة، على رفوفها وبين طاولاتها. ولم يبق لي اليوم سوى صور علقت بين قلبي وذاكرتي، والنزاع قائمٌ على صكوك ملكيتها...

ربما يكون من غير اللائق أن أستفيض في الحديث عنه أمامك. وقد أكون بمنتهى الأنانية وأنا أروي حكايتي معه، على مسامع قلبك، دون مراعاةٍ لشعورك. اعذرني، ولكنها الصراحة التي انتهجناها معاً طوال الأشهر الماضية، وأعدك بأني لن أغوص في التفاصيل الأخرى...

كفاك ألماً وسخطاً... وكفاني شوقاً إليه...

عزيزي، هكذا اجترحنا البداية. ولم يكن بمقدورنا الانتظار حتى يفبرك لنا القدر نهايةً بحجم أحلامنا، فافترقنا... نعم افترقنا...

ربما ظننت أن في طيات رسالتي هذه نهايةً سعيدةً، معه... أو لعلك توقعت أن نهايةَ علاقتي بك ستؤسّس بداية ارتباطي به؟ ربما هذا ما يفترض أن يكون... إلا أن الواقع اختار لنا الفراق، فافترقنا... تخيل! لقد كان عالم المذاهب أضيق من أن يسع حبنا، وكانت لعبة الطوائف البدائية في بلدٍ ضيق الأفق، أقوى من إرادتنا، وأخطر من جنوننا! ومع أننا آمنا بحب واحد، على مذهب واحد، إلا أن الحياة شاءت...

فامتثلنا... ولعلها تواطأت معك أيضاً، لتثأر لك... فاختارت لنا نهايةً واقعيةً... وافترقنا.

لم يكن من سبيلٍ لنهايةٍ أخرى، أقل خسارةً... وكنت أنت دائماً هناك، بمحاذاتنا، كما ظلنا. تراقب سراً جنون لهفتنا، تسخر من خوفنا وتنتظر الوقت المناسب كيما تنقض على قلبينا، فترديهما بصمت...

هذه هي الحكاية عزيزي، بكل فصولها. لعلك انتظرت مشهداً آخر، أو توقعت أحداثاً مشبوهةً أو أكثر حميميةً. أتعلم؟ ربما لو كنت أحيا بقلب أخرى لتابعت مشواري معك ولقلت في نفسي إنها قصةٌ وانتهت «ولا مين شاف ولا مين دري» كما يقولون، وأنك الزوج المناسب حتى وإن لم تكن الحبيب.

لو كنت امرأةً أخرى لأقنعت نفسي بأن أعيش معك على ذكراه، كي لا أخسرك... ولكن هذه أنا ولست أي أخرى. وعلى الرغم من كل ما حدث وما لن يحدث بيني وبينه، فها أنا الآن أنسحب من حياتك على رؤوس أصابعي، ولا أدري إن كنت ستغفر لي يوماً وتنسى؟ كم أرجو ذلك...

عزيزي، أرجو أن تصدقني، لأني لم أكذب عليك يوماً... ربما لو أنك سألتني لكنت أجبتك، واختصرت عذابي. كنت حدثتك عنه، عن عينيه وعن ألمي وحيرتي. كنت أخبرتك أن علاقتي بك انتهت مذ رأيته، ولم يتبق منها سوى بعض المجاملات الرثة... ولكنك لم تسألني، وتركتني أتخبط في ظلمة الأقدار وحدي.

عزيزي، هذه هي الخاتمة، وما من سيناريو آخر أنهي به رحلتي معك. لم أكن لك يوماً ولن أكون له. ربما ستضعني الصدفة في ما بعد على درب رجلٍ آخر، من يدري... ربما سأشفى منه يوماً وأندم على كل مجازفاتي بك وخساراتي معك، ولكني

أريد الآن لعلاقتنا حكماً بالعفو عن كل ما مضى، أريد أن ألتقيك في الشارع فلا أشيح بوجهي عنك خجلاً، وأريد أن أرفع سماعة الهاتف صباحاً لأسمع سؤالك عني وعن أحوالي، فسيعني ذلك لي الكثير. صدقني...

عندما ستقرأ رسالتي هذه، ستكون عيناي بقربك. ستداوي اليسرى جرحاً سببته لك اليمنى، وسأبقى الجارة المتعبة التي تنتظر المساعدة، وأشياء أخرى...

أعلم أن الجرح عميقٌ ومؤلم، ولكني لم أتعمده مطلقاً. وسأراهن على الزمن... فهو الكفيل بكي الجراح، وسأنتظر خبر ارتباطك قريباً. فثمة من تنتظرك، حتماً، في مكانٍ ما...

لا تدعها تنتظر... شرع نافذة قلبك على مصراعيها وأطلق لها العنان وستنساني وكأني لم أكن يوماً...

كأني لم أكن يوماً

أُسقط في يدها أخيراً وخسرت أم معاركها. كانت الجولة الأخيرة سريعةً جداً ولم تمهلها مطلقاً. لم تتمكن من التحصن خلف دشم النسيان ولم يسعفها الوقت حتى تعيد تموضع مشاعرها أو حتى تراجع تكتيك خطتها. فانهزمت جيوش حبها أمام عينيها وأعلن قلبها الحداد.

كانت تعلم جيداً أنها أمام حربٍ ضروس، لا مكان فيها لأسلحة ولا حاجة إلى ذخيرة. جل ما كان يلزمها بعض الصبر والكثير من الشجاعة... إلا أنها لم تتوقع أن تُهزَم بهذه السرعة. لم تتوقع أن تُهجَر بهذا البرود أو أن تُبعَد إلى هذا الحد، وكأنها لم تكن يوماً.

ارتعشت يداها وهي تفتح البطاقة، وجف حلقها. فكما توقعت فعلاً، كانت البطاقة دعوةً إلى زفاف، ولكن ليس أي زفاف، إنه زفافه هو...

لم تصدق عينيها، ولم ترد قط أن تصدقهما. كان وقع الصدمة أليماً ومربكاً. ها هو ذا اسمه يلمع بأحرف من ذهب، نقشت على تلك البطاقة بتأنٍ، يبدو لها متعمداً، ليضاعف ألمها، ربما... وها هو اسمها، «سعيدة الحظ»، يتمايل فرحاً، يجاور اسمه ألقاً، بهياً...

لم يكن اسماً ذا وقعٍ مألوفٍ بالنسبة إليها، ولم تسمع به من قبل في أحياء القرية. ربما كانت صبيةً من القرى المجاورة، أو من حتى المدينة. ولكن... أين عرفها، ومتى رآها؟ أتراه كان على علاقةٍ بهما معاً، في آنٍ واحد؟

ضاعت مشاعرها منها في لحظة التباس وأرهقها التفكير. أصحيحٌ ما ترى؟ أصحيحٌ

أنه سيتزوج؟هل سيصحو حقاً في سرير أخرى؟ هل سيغفو في حضن غيرها؟ وهي، أين هي من كل ذلك؟ أين الوعود والأشواق؟ كيف استطاع أن ينسى، وبهذه السرعة؟

شعرت برغبةٍ في البكاء، لكن عينيها لم تطاوعاها، ولم تروِ الدموع ظمأ أسئلتها. كأن سهماً من نارٍ كان يخترق ضلوعها ويكوي جرحها. فماذا تفعل؟ لم يترك لها الخيار. بل لم يعطها يوماً خياراً.

لم يستأذنها عندما أرادها أن تحبه، واغتصب قلبها بعد أن جردها من كل أسلحتها. وعندما أصبحت عزلاء، مارس ضدها كل أشكال الحروب العاطفية والنفسية ولم تقوَ على صده. كانت أضعف من أن تقاوم، وأجبن من أن تهرب، فبقيت هناك... تنتظر.

وها هو اليوم يسحب جيوش سطوته ويرحل، دون أن يشكرها على كرم الضيافة في الحب، ودون أن يستشيرها حتى، فربما كانت تستعذب اضطهاد عينيه...

ارتمت على الكنبة في لحظة انهزام. كانت الغرفة تدور من حولها فتدور معها الأفكار في رأسها الصغير. تناثرت الصور أمام عينيها وانقلبت رأساً على عقب. إلا أن التواريخ بقيت محفورةً في ذاكرتها، كنقشٍ في حجر. أنى لها أن تنسى؟ فقطيعتهما ما زالت نديةً، لم تتجاوز الشهرين. قطيعةٌ، بلا مقدمات، بلا مبررات وبلا أي إنذارات مسبقة. فذات مساءٍ منذ شهرين، كانا معاً، يتقاسمان خبز الحب. وعندما استيقظت في الصباح التالي، لم تجده. كان قد خلع عنه معطف الغرام وتلحف بالصمت وغادر، تاركاً لها عند عتبة الباب حفنة عطر، وبعض الذكريات...

كانت تعلم أنه سيرحل، عاجلاً أم آجلاً. لكنها كانت تتحايل على الوقت وتستعطفه. كانت تعي جيداً أن كل هذه المشاعر الوردية التي تروي عطش أيامها ليست سوى

سحابة عابرة، ستتبخرعندما سيقرر الرحيل...

لعنت نفسها، ولعنت حبها، ولعنت كل لحظةٍ صدقت فيها أنه سيكون لها يوماً. كيف يكون لها وهي طوع يديه متى أراد؟ كيف يكون لها وهي الأنثى التي لا تبخل أبداً ولا تمل يوماً ولا تتذمر مطلقاً. لم تشترط عليه يوماً أي ارتباط، ولم تطالبه بأي التزامات. كانت نعجةً مطيعةً حد الغباوة. يأتيها متى يشاء، ويغادرها عندما يحلو له ذلك. وهي، كل ما عليها هو الصبر والانتظار.

كانت تحلم أن يأتيها يوماً حاملاً قلبه بين يديه هدية صبرها، أو أن يفاجئها في عيد مولدها بخاتم الزواج. ولكن... ها هو يرمي إليها بأشد المفاجآت وقعاً، وأكثرها قسوةً...

ها هي تستفيق من حلمها الآن، مذهولةً، مطعونة الكبرياء، وعليها تحمل النتائج. هي المسؤولة الوحيدة عن كل ما آلت إليه حالها. وعليها وحدها تحمل نتائج ضعفها وسلبيتها.

لماذا كان كل هذا الاستسلام إذن؟ من أجل بعض كلماتٍ معسولةٍ كان يطرب بها سمعها، أو لحظاتٍ من الدفء يذيب به جليد مشاعرها؟ أم لأنها كانت تكبره سناً، فكان لا بد لها من تقديم التنازلات؟ لا بد لها من أن ترضيه. أن تنسيه أنها امرأةٌ عادية الحضور، روتينية الأفكار، وفوق ذلك كله تكبره بأربع سنوات. أيحق لها أن تعترض؟ أن تطالب أو تتذمر؟ ربما، ولكنها لم تفعل. كانت دائمة الصمت، باذخة الحب، فيما يمن هو عليها بفتات العواطف البائتة...

نظرت إلى البطاقة من جديد، ولكن بتركيزٍعالٍ هذه المرة، وتبينت كل تفاصيل الحفلة. أيام تفصلها عن ذلك اليوم المشؤوم. هل ستذهب؟ طبعاً لا... كيف تذهب

ومن أجل من؟ أتذهب لتزداد ألماً وندماً؟ وتعجبت من وقاحته، من قسوته. كيف أمكنه أن يدرجها على لائحة المدعوين؟ كيف طاوعه قلبه أن يدعوها إلى زفافه؟ ألم يخجل من اسمها وهو يخطه بيديه على مغلف الدعوة؟ ألا يخشى أن تخونها ذاكرتها وتنطق بكل ما كان بينهما يوماً؟ أم أنه لم يجد طريقةً أخرى أو أسلوباً آخر كي ينهي علاقته بها ويخبرها أن لا جدوى من انتظارها له بعد اليوم. يا لجبروت الرجال!...

أتذهب؟ عاودها السؤال، عجولاً حثيثاً. ولم لا؟ فقد يزيدها ذلك المشهد حقداً، ويستحيل الحقد ناراً تلتهم كل ذكرياتها معه، فتتحول جذوة حبها رماداً، وتنساه. يجب أن تنساه بأي ثمن.

بلى، ستذهب وتراه، وستثبت له أنه لم يعد يعني لها شيئاً وأنها تستطيع النظر في عينيه وهو يقبل عروسه، دون أن يرف قلبها، وكأنه لم يعبر حياتها البتة...

ولكن، ماذا لو فشلت؟ ماذا لو جردها من قناعها وكشف ألمها؟ فلطالما كانت سريعة العطب، غزيرة الدموع. فهل ستتغلب على ضعفها أمامه، ولو لمرةٍ واحدة في حياتها؟

تناقلتها الأفكار من هنا إلى هناك وارتعدت وهي تتخيله أمامها ببذلةٍ سوداء، كان يفترض أن تختارها له بنفسها يوماً ما. تخيلته... كيف سيتأبط ذراع تلك الأخرى ويراقصها على مرأى من خيبتها؟ تآكلتها نيران الغيرة فجأةً، وقررت الذهاب فعلاً. فهي تريد أن تراها. يتملكها الفضول لتعرف ما سر اختياره لها، ما الذي يميزها حتى يرتبط بها إلى الأبد ويمنحها اسمه؟

أسرعت إلى الخزانة بسرعة البرق وراحت تتفحص ملابسها وكأنها تراها للمرة الأولى. كانت تبحث عن ثوبٍ مميزٍ يعذب ذاكرته ويؤنبها، مع أنها ككل النساء، تفضل دائماً ثوباً جديداً يليق بمناسبةٍ على هذا القدر من الأهمية، وعلى هذا القدر من الحزن...

واحتارت أمام مرآتها، تفكر في أي لونٍ ستلقاه.

لطالما كان للمناسبات والسهرات في قاموس أزيائها مرادفٌ واحد، الأسود. لونٌ يختزن كل الأناقة وكل الغموض، وإذا ما نطق، فلا يبوح بغير الأنوثة. لون أسودٌ طبعاً، سواد ليلها بعده. إلا أنها لا تريد أن توحي له بذرةِ حزنٍ واحدة. لا تريده أن يظن في لحظة غرور، أنها تعيش الحداد من بعده، لذا قررت معاكسة الواقع، وارتداء الفرح.

ثم كان اليوم الموعود...

مرت الأيام بطيئةً، كئيبة. كانت تترقب الحدث العظيم بقلق، وتفكر فيه ليل نهار. حتى كان يوم الأحد... استيقظت على صوت جارتها، تقرع الباب وتسألها عن ترتيباتها، فكانت قد اتفقت معها أن ترافقهم إلى الحفلة منعاً لأي ارتباكٍ أو إحراج، خصوصاً وأنها لم تعتد ارتياد الحفلات بمفردها، فهي كائنٌ خجولٌ إلى حدٍّ ما، تتجنب أعين الناس ونظراتهم.

احتست مع جارتها فنجان القهوة الصباحية وتبادلتا بعض ما يروى من أخبارٍ في الحي عن العروس وعن الثروة التي تنتظرها. روايةٌ عن زواج مصالح رتبته الأمهات، وأخرى عن علاقةٍ سريةٍ كانت تجمع بين العروسين منذ أشهرٍ طويلة. أخبارٌ وأخبار لا يتقنها سوى أهل القرى. يطبخونها على نار الموقد الهادئة، وباحترافٍ عجيب.

ثم... بدأت بعد الظهر مرحلة الاستعداد للحفلة. من قناع الجمال إلى طلاء الأظفار وتصفيف الشعر ثم اختيار الماكياج المناسب والإكسسوارات وكل ما يخطر وما لا يخطر ببال النساء في يومٍ كهذا. كانت شديدة الحرص على أن تبدو في أفضل أحوالها، وفي أبهى حللها وكأنها هي العروس. فحتى الآن، هي لا تعرف ما هي جوانب القوة أو الضعف لدى منافستها، وعليها أن تكون جاهزةً لأسوأ الاحتمالات.

فالعدو أنثى، وما أدراك ما الأنثى!

وأخيراً... دق ناقوس الخطر وقرعت طبول الحرب. ترددت مراتٍ عديدة قبل أن تركب السيارة برفقة الجيران وتمنت لو أنها تستطيع الفرار. لم تكن تحترف المواجهات بطبعها، ولم تفكر قط في موقف مماثلٍ وفي ما قد يفرضه عليها ذلك من فعلٍ ورد فعل.

راحت العربة تشق بهم الطريق الجبلي ببطءٍ باتجاه صالة الأفراح، على تخوم المدينة. وكانت الأفكار تأخذها إليه. إلى عينيه، إلى نظراته ولمساته، إلى كل شيءٍ فيه. شعرت بشوقٍ غريبٍ إليه. إحساسٌ جارفٌ لم تعرفه يوماً، حتى في أيام القطيعة الأخيرة. كانت تشعر به قريباً جداً، كأنه لم يفارقها لحظةً واحدة.

آلمها الحنين وتذكرت أنه لم يعد لها، بل لم يكن يوماً لها... عذبها الحنين وغضبت من ضعفها وتساءلت، هل تراها ستسامحه؟ هل ستطوي هذه الصفحة من حياتها إلى الأبد؟ هل ستلتقيه يوماً دون أن يلدغ الشوق قلبها؟ طبعاً لا...

توقفت السيارة أخيراً أمام مدخل الصالة فتوقف قلبها عن النبض. ترجلت من العربة بسرعة، رتبت خصلة الشعر المنسدلة على وجهها، تأبطت قلقها، وانطلقت. حاولت أن تشتت تفكيرها بالتحدث إلى جارتها، وبإلقاء التحية هنا وهناك. كانت تبدو جميلةً جداً بفستانها الليلكي الطويل، وشعرها الأسود المتناثر على كتفيها العاريتين...

في الصالة، كان الوضع مختلفاً تماماً. صخبٌ، رقصٌ ووجوه على مد النظر. هدأ روعها قليلاً وشغلتها الأهازيج والموسيقى الهادرة. لم يكن العروسان قد حضرا بعد. سلمت على والدي العريس وتمنت له زواجاً سعيداً وشعرت أن عيني والدته تتفحصانها من رأسها إلى أخمص قدميها. أتراها اشتمت رائحته فيها؟ أم تراها كانت

على علمٍ بكل ما كان بينهما؟ ففي نظراتها كلامٌ كثير.

جلست إلى الطاولة مع الأصحاب، أخذت نفساً عميقاً وراحت تنتظر. كانت كمن يترقب غريمه ليأخذ بالثأر. اعتلت عينيها فجأةً سحابة حزن وشعرت بثقلٍ جاثمٍ على صدرها. كان شعوراً باليأس وبالإحباط، كأن تعيش دهراً وأنت تحلم بكنزٍ ثمين وعندما يصبح بين يديك، تعجز عن الاحتفاظ به. لطالما أوجعتها الأعراس، لطالما أشعرتها أن القطار قد فاتها فعلاً وأنها لن تلحق بركب المتزوجين أبداً. لن تقف هناك، بفستانها الأبيض، تنتظر فارسها الآتي من البعيد، على جواد الحب. ها هي اليوم في الثالثة والثلاثين، تطارد ذكرى رجلٍ قد يكون أول المغامرين في حياتها، وآخر المعجبين.

كان الجميع حولها منشغلين، كلٌّ بما يعنيه. بعضهم يرقص على النغمات الصاخبة، وآخرون يتسامرون، وشبانٌ، وشابات يتمايلون على أنغام الدبكة، ويتبادلون النظرات الملتهبة.

فجأةً، توقفت الأهازيج وارتفعت موسيقى الزفة، فتوقف قلبها عن الخفقان.

أخيراً انقشع الضباب وأطل العروسان على الحشود.. تبخرت الوجوه مرةً واحدة، وامّحت الألوان من حولها. صمتٌ رهيبٌ ساد القاعة، وسكن فجأةً كل شيء، حتى كأنه لم يعد موجوداً أصلاً... كأنها تقف وحيدةً في صحراء مقفرة، فتزيدها الوحشة وحشةً. شعورٌ غريبٌ استبد بها. سخطٌ، ألمٌ، رهبةٌ، شوقٌ، غيرةٌ وحقد، تمازجت جميعها في وعاء الحزن وانسكبت عميقاً في أسفل قلبها. شعرت بكل كيانها يرتجف، وبأنفاسها تختنق وهو يمر بين طاولات المدعوين ويحييهم... كانت العروس تتمايل بدلال، تتأبط ذراعه وتلوح للحضور بباقةٍ من الزهور البيضاء. وهو، بنظرته الساحرة

وحضوره الأخاذ، راح يوزع الابتسامات يميناً وشمالاً محيياً كل المدعوين.

أرآها؟ لا لم يرها، لم يلمحها حتى... شعرت بعينيها تتصلبان، تتسمران، ثم تذوبان في ابتسامة عينيه.

ماذا عساها تفعل الآن؟ أين ستختفي؟ تمنت لو أن الأرض تبتلعها قبل أن يراها، ولعنت اللحظة التي قررت فيها الحضور. لماذا أتت؟ لتراها، أم لتراه هو؟ لكي تنساه أم لتضيف صورةً أخرى إلى ألبوم صوره التي تفترش ذاكرتها؟ ما الذي جاء بها إليه؟ فالعروس التي تبحث عن ملامحها موجودةٌ هناك، بين ذراعيه، تعانقه، وتراقصه.

أتشبهها؟ طبعاً لا... لا شيء مشتركاً بينهما مطلقاً، فهي لا تمتلك عينيها ولا جرأتها ولا حتى دلالها. عروسٌ أجمل بكثيرٍ مما توقعت، وأصغر سناً مما افترضت. شعرت كأنها أمام عدوّ جبار لا يهزم، يفوقها عدةً وعتاداً. عدوّ يذكرها قبل أن يبدأ حربه معها، بكل هزائمها. ويستعرض أمام عينيها نقاط ضعفها.

أين ستختبئ الآن من هزيمتها؟ فلم تعد قادرةً على المواجهة. لن تتمكن من الوجود معه في هذا المكان، وفي هذا اليوم بالذات. لن تستطيع النظر في عينيه وكأنه لم يسكنها يوماً. لن تقوى على رؤيته وهو يقبل عروسه وكأنه لم يعبر شفتيها من قبل... شعرت بدوار فظيع، وبكمٍّ من الدموع تتجمع عند حدود عينيها وفجأةً، استفاقت من كابوسها على صوت والدته تدعوها هي والجيران لأخذ صورة تذكاريةٍ مع العروسين. أربكها الطلب المفاجئ، وأربكها أكثر ردٌّ لم يكن حاضراً في ذهنها. حاولت التملص من الموضوع ففاجأها إصرار أمه وترحيب جارتها بالأمر. فتقدمت من المنصة، مكرهة، والعبرات تخنقها.

هل كانت تحتاج حقاً إلى صورة تذكارية معه في يوم زفافه؟ أكان ينقصها أن ترى

خيبتها معلقةً على جدران قلبه، يطالعها كل يومٍ ويستذكر غباوتها؟ ألم يكفها ما احتوت ذاكرتها من صور له؟

على مقربةٍ من فرحته، وقفت... مسحت دموعها بيدٍ خفية، رتبت شعرها، وبشجاعةٍ مجهولة المصدر، ضخت شفتيها بابتسامةٍ مستعارة كما يضخ الأوكسيجين في فم الغريق، ثم رفعت نظرها إليه وحدقت ملياً إلى عينيه وهي تقول له: «مبروك»...

لم تصافحه، عمداً...لم ترد ليدها أن تستذكر دفء يديه.

نظربدوره إليها نظرةً مبهمة المعاني، تائهة الحدود، وشكرها. وبخطى مرتجفة، وقفت إلى جوارعروسه بانتظار غمزة آلة التصوير. لحظةٌ مقدارها ألف سنة، كبلتها من رأسها إلى أخمص قدميها، حتى أطلق سراحها أخيراً ضوء الكاميرا وأيقظ حزنها... انتهى إذاً التصوير وانتهت معه مدة صلاحية الأقنعة الكاذبة...

أسرعت الخطى بعيداً عن الأضواء، وبعيداً عنه... كان الجميع ما زالوا هناك، منشغلين عنها بفرحتهم. لم تلتفت إلى الوراء ولن تلتفت... لن يراها وهي تبكيه. لن يشهد سقوطها أمامه، ولن يشمت بكبريائها. أسرعت الخطى إلى الأمام، باتجاه الممر الخارجي للقاعة، وكسحابة صيفٍ خجولة، لملمت دموعها وابتعدت عن الحاضرين. كانت المسافة إلى الخارج كسرداب مقفرٍ، مسكون بالأشباح. هرعت من الباب الخشبي إلى الباحة الخلفية، تنفست عميقاً عميقاً. أسندت حزنها إلى جدار الصمت هناك، واستسلمت للبكاء...

نيسان ونسيان

التقته صدفةً، ذات مساء، في منزل إحدى صديقاتها... كانت تلبي دعوة إلى حفل عشاءٍ على شرفها. هي القادمة حديثاً من أرض الأفراح المسلوبة والأحلام المؤجلة... إلى بلد الأرقام الباذخة، والوجوه الزائفة، والجيوب المنتفخة... وهنا، في بلاد الألف لونٍ ولون، كانت بداية رحلتها مع الغربة، وبداية جنونها معه...

جلست إلى الطاولة في ذلك المساء، وراحت تتفحص ملامح الحاضرين، وتوزع على الجميع باقة ابتساماتٍ تعارفية... كان نَفَس الخريف يغمر المكان وحتى الوجوه... سهرةٌ هادئة الإيقاع إلى حدٍّ ما.

تكاد لا تصدق أنها سافرت، أخيراً...

لطالما كانت ترفض فكرة العمل في الخارج، لطالما حاولت أن تقنع أخاها أن يبقى، أن يصبر على حماقات هذا الوطن... أن يصمد ولا يرحل مع الراحلين... ولكن... أين هي اليوم؟ هل بقيت؟ هل صمدت؟ ها هي تبعد آلاف الكيلومترات عن ذلك الوطن الذي أحبته حتى الجنون. نعم، حتى الجنون... وكيف لا يسمى مجنوناً من يصبر على العيش ثلاثين عاماً في وطنٍ أدمن كل أنواع الحروب... وطنٌ يسكن قدره في كف عفريت، وتلعب به كل اتجاهات الرياح العالمية... وطنٌ يقتات بأحلام الفقراء ويفرد يديه ملياً في جيوب الأغنياء. وطنٌ يتاجر بعروبتك كل يوم في الأسواق الإقليمية والأجنبية، وسرعان ما يبيعها بأبخس الأثمان في أول صفقةٍ رابحة... هو حتماً ضربٌ من الجنون أن تعيش وتُصفع كل يومٍ عشرات المرات بتهمة الوطنية، وأن تصمت وتصمت فقط... خوفاً على وحدة ذاك الوطن وصموده.

سرقها الحنين إلى أرضها فتنهدت بعمقٍ... يبدو أنها هي أيضاً ركبت ركب التجار وباعت مبادئها لأول عقد عملٍ من الدرجة الأولى... هل كان السبب حقاً انعدام الفرص الحقيقية أمام جيلها، كما أقنعت نفسها، أم هو الاستسلام اللذيذ لإغراء المال والرفاهية؟؟ هل كانت تلك الوظيفة الأنيقة تستحق كل هذا البعد، وكل هذه الغربة؟

أسئلةٌ لا طائل فيها الآن، تجول في خاطرها، تشغلها عما يدور حول الطاولة من أصناف الأحاديث ربما تكون قد أخطأت فعلاً في اختيارها السفر... ولكنها ليست الوحيدة التي هجرت بلادها، فالحاضرون هنا، جميعهم مغتربون... هل لاموا أنفسهم يوماً كما تفعل هي الآن؟ ربما...

أما هو... فكان جالساً قبالتها، يطالع وجهها ويحاول أن يفك رموز صمتها. كان صامتاً، هو أيضاً، إلا من بعض التعليقات السياسية اللافتة... رجلٌ على عتبة الأربعين... وسيمٌ ذو سمرةٍ واضحة، حاد النظرات وصارخ الحضور بكل المقاييس.

لم يحاول أن يوجه إليها حديثاً معيناً، واكتفى ببعض الابتسامات الهادئة...

عبرتها عيناه كنسمة فجرٍ دافئة، محملةٍ بألف سؤالٍ وسؤال...لم يكن من السهل طبعاً التكهن بأفكاره وأسئلته، ولم يكن من السهل أيضاً تجاهل نظراته ولا العبث معها...

انتهى العشاء أخيراً... كان الوقت متأخراً بعض الشيء. لملم الجميع ما تبقى من قواهم الخائرة بعد يوم عملٍ طويل، وتفرقوا، كلٌّ إلى وجهته...

أما هي، وفيما كانت تنتظر أن تقلها صديقتها، لعب القدر معها أولى أوراقها الرابحة، فعرض عليها، أن يقلها هو بنفسه، لقرب منزلها من مكان سكنه وليوفر على صديقتهم عناء الطريق. فكانت السيارة أولى المحطات، هناك، حيث تعثر بهم الحب صدفةً...

شوارع مقفرة وإضاءاتٌ خافتة، مطرٌ خفيف وبعض الموسيقى الكلاسيكية... شعورٌ مبهمٌ انتابها وهي إلى جانبه... طمأنينةٌ غريبةٌ غلفت قلبها، كما لو كانت بين ذويها. شعرت به قريباً جداً، مع أنه كان يبدو متعباً، أو محبطاً. ثمة حزنٌ ملثمٌ كان يطل من عينيه بين الحين والآخر... تراها الوحدة؟ أم الغربة؟ أم كلاهما معاً؟

في الطريق، تجاذبا أطراف الحديث، وتبادلا أرقام الهاتف ومن ثم افترقا... لم يستوقفها المشهد كثيراً، وغطت مباشرةً في نومٍ عميق. أما هو، فلم ينتظر طويلاً. اتصل بها في اليوم التالي ليدعي أنه في اجتماعٍ قريبٍ من مكان عملها، وأنه يدعوها لاحتساء القهوة في أحد المقاهي المجاورة.

هكذا، بكل بساطة... وبلا مقدمات سخيفة وبالية، اخترق حدود قلبها دون إذن عبور، ودخل. كان اللقاء الأول كفيلاً بتوضيح كل شيء، وبإسهاب، دون حاجةٍ إلى الكلام. هناك أمورٌ، يجب أحياناً ألا نقحم ألسنتنا فيها لأننا نفسدها، يكفينا الصمت ومن ثم الصمت...

مر يومان على أول لقاءٍ لهما، ولم يتصل... ربما كان مشغولاً، وربما كان يختبر اهتمامها، أو يحاول أن يقيس شوقها بمقياس سرعة الهواتف العشقية، ولكنها لم تتصل، هي أيضاً، حتى كان يوم الإجازة. رن هاتفها في السادسة صباحاً. استيقظت مذعورةً على صوته، يدعوها إلى نزهة على أجنحة الفجر، ليشاهدا شروق الشمس معاً... جنونٌ لا مثيل له... لم يصدف أن عرض عليها أحدٌ من قبل مشهداً بهذا الإغراء... فكيف لها أن تقاوم؟ وكم تحتاج من البرود كي ترفض جنوناً بهذا الدفء وبهذه الرومنسية؟

ذهبا معاً إلى شاطئ البحر. كانت النسمات باردةً بعض الشيء والشمس تستعد

لظهورٍ خجول... مكانٌ لا يليق إلا بعاشقين زحف بهما الشوق إلى أحضان البحر. ولكنهما ليسا كذلك، فما الذي أتى بها إلى هنا، برفقته؟ جنونٌ حتمي... وهي تعشق هذا النوع من الجنون، ولكن... تراها نسيت أنه متزوج ولديه ابنة، أم تناست؟ من هي، لتكون معه الآن في أكثر الأماكن رومنسيةً وأكثر الأوقات شبهةً؟

تبخرت الأسئلة أمام عينيها عندما شعرت فجأةً بيديه تطبقان على يدها، وتحاصران ارتباكها... لم تقل شيئاً. لم يعطها فرصةً لفعل أي شيءٍ آخر سوى الاستسلام للمساته الحارة. كان فرحاً، على غير عادة، وكان عاشقاً بلا أدنى شك... كانت تستمع إلى دقات قلبه الصاخبة، تريد أن ترصد إيقاعها العنيف وتفك تشابكها.

ولكن... أشرقت الشمس سريعاً، ذاك الصباح وأوصدت أمامهما كل أبواب الكلام...

هو الحب... تغلغل فيها على حين غفلة، دون أن يمنحها وقتاً للتفكير، للأخذ والرد. ربما يجب عليها تقييم الوضع فوراً ودراسته من كل الجوانب. وعليها أيضاً أن تضع الأمور في ميزان الخطأ والصواب. وعندئذ سترجح كفة الخطأ حتماً، لا شك لديها في ذلك. ولكنها لا تريد...

لا تريد أن تُسلب منها هذه اللحظات الدافئة. تريد أن يتوقف بها الزمن عند حدود عينيه. فهو قدرها... وإلا، فما تفسير توقيت سفرها الآن بعد رفضها الذي دام طويلاً؟ ولم شاءت الصدفة أن تختار لها هذا البلد تحديداً مع أنها حاولت جاهدةً اللحاق بأخيها في بلدٍ آخر وتعثرت بها السبل... أليس في ذلك دليلٌ على أنه قدرها المحتوم؟ وبما أنه كذلك فعليها الرضا بكل ما كتب القدرعلى جبينها، وأوله الحب...

الحب... نعم، هو الحب طبعاً. فمن المستحيل أن تخطئه. شعور عايشها أياماً طويلةً من قبل. ها هو يعود اليوم بحلةٍ جديدة، متنكراً بزي الأربعين، شاهراً في

وجهها كل عقد هذا العمر، كل جنونه وروعته. لم يسبق لها أن أحبت أحداً في الأربعين، ولم تكن تدري عمق المستنقع الذي أوقعت نفسها فيه، ولا خطورة الرياح التي فتحت لها شبابيك قلبها... إنها عواصف الأربعين، لا تبقي ولا تذر...

تعاقبت أيامها بوتيرةٍ سريعةٍ إلى حدٍ ما. كان العمل يبتلع نهاراتها، وهي تحاول أن تثبت ذاتها بشتى السبل، ثم يتركها في المساء جسداً مرهقاً، وقلباً عاشقاً ينتظر هاتف الحب كي يستعيد نشاطه وألقه... اتصالٌ واحدٌ مرفقٌ بهمسة «حبيبتي» يكفيها كي تنبعث الحياة فيها من جديد. لم يمر يومٌ واحدٌ دون أن يوقظها على اتصال «صباح الحب» ليستمتع بنعاس صوتها وهي لا تزال في أحضان سريرها. ولم يمر مساءٌ دون أن يخبئ في جوارير قلبها رسائله السرية، ويتركها تقلب صفحات العشق، مدهوشةً بتدافع أشواقه وارتفاع مدها يوماً بعد يوم.

كان استثنائياً في كل شيء. في عفويته، في طفولته، في اشتياقه وفي كم الحنان الذي يملأ عينيه عندما يعانقها، فتنطق في أحضانه أبجدية جسدها، عشقاً لا حدود له...

لم يحدثها كثيراً عن زوجته، أوعن طبيعة ارتباطهما. لم يخبرها يوماً باستيائه من علاقتهما أو ندمه على الزواج. كان يقلل من ذكرها، ويتجنب الخوض في حياته العائلية، مع أنها حاولت مراراً أن تستدرجه لمعرفة أي شيءٍ قد يعطيها صورةً عنها، عن شخصية تلك المرأة التي أوقعته في شركها ذات يوم ولم يعد الآن بمقدوره الإفلات من قفصٍ ختمته يداها بالشمع الأحمر.

كانت تتخيل أحياناً لو أنها كانت زوجته لكان لحياته ربما وقعٌ مختلف وطعمٌ آخر... لو كانت زوجته للونت أيامه بقوس قزح من نسج قلبها، لسكبت على شفتيه الحب

سيولاً وأنهارا حتى يرتوي... لو كانت زوجته، للقنته الفرح حرفاً حرفاً، ولكن... هي ليست زوجته ولن تكون، فلتكف عن كل ذلك ولتستمتع بوجوده معها الآن. تكفيها فرحة عينيه حين يلقاها...

كان الشتاء قد بدأ يلملم ذيوله ويستعد للرحيل. شهورٌحتى الآن وهي تستعين على الغربة بدفء صوته، شهورٌ وهي تركض خلف سرابٍ اسمه الحب... وهمٌ لبسها عقداً في جيده، لقمها بيديه أفخر أنواع السعادة، أعطاها مفاتيح كل المداخل السرية إلى قلب حبيبها، وتركها عند الباب، تنتظر... لم تكن تبالي طبعاً، كان يكفيها أنه يحبها كما لم يحب رجلٌ من قبل...

ثم كان الربيع... وهل أجمل من الحب في الربيع؟؟؟

انتظرت نيسان بفارغ الصبر، كان يخبئ بين وروده عيد مولده الثالث والأربعين. كانت تشتعل شوقاً لتعيش معه ذات تاسعٍ من نيسان، لحظة حب لا تتكرر. هي حتماً أمورٌ لا تعنيه... تماماً كما بقية الرجال. لا يكترثون كثيراً لذكرى ميلادهم ولا يشغلون فكرهم بالهدية ولون الزينة والعبارة الخاصة على قالب الحلوى. تلك تفاصيل نسائيةٌ محض، لا علاقة لها بعالم الذكور واهتماماتهم المحدودة. لكنها كانت تريد له يوماً مميزاً ينقش على جدران ذاكرته إلى الأبد.

مر نيسان بأيامه الأولى ولم تره. كان خارج البلاد في رحلة عائلية قصيرة. كانت تذوب شوقاً إليه... إحساسٌ رهيبٌ بالغربة استبد بها وهو بعيدٌ عنها... ثم عاد...

عاد أخيراً ... اعتلى صهوة أشواقه واتجه نحوها. كانت رياح اللهفة تحمله إليها، إلى أحضانها، إلى وشوشات العطر على جسدها، وإلى دهاليز الرغبة في عينيها... عاد ليغرس في جلدها بذور الحنين الذي لا موسم له... عاد أخيراً وأنفق يوماً كاملاً عند

شواطئ قلبها...

كان أجمل أيامها معه، وأروع فصول قصتها التي أزهرت باكراً، قبل حلول الربيع...

يومٌ ربيعي في عرض البحر. شمسٌ تداعب جسديهما، نوارس تتلصص عليهما بين الحين والآخر، وعشقٌ بلا حدود...

كان وجوده معها يمنحها جرعاتٍ زائدةً من الأمان الذي تفتقده كثيراً في هذا البلد الغريب.فكلما التقته، ازدادت تعلقاً به، وكلما اقترب اللقاء من نهايته، دفنت وجهها في صدره كطفلٍ هاربٍ من المجهول... فكيف ستصبر على فراقه عمراً بأكمله؟

عند المغيب، عاد بهما المركب من أرض الأحلام المستحيلة، ورماهما على رصيف الحياة من جديد. عادت، والكآبة تستوطن كل ذرةٍ فيها، كأنها تستشعر قرب النهاية.

لم تستطع تحمل الوحدة بين جدران غرفتها فخرجت للتنزه مساءً. كانت كل شوارع المدينة قد تقمصت وجهه، فكيف الهروب منه؟ شعرت فجأةً بحاجةٍ إلى البوح... إلى الكلام... كأنها تريد أن تحدث أحداً عنه وعن الهوى الذي يستبيح كيانها، منذ التقته. فوجدت نفسها عند باب صديقتهما المشتركة، تقرع جرس استغاثة.

فُتحَ الباب بسرعة وأطلت بعينيها على الحاضرين لتراه جالساً في الصالة، ومعه زوجته وابنتهما. مفاجأةٌ تساوي حياتها... فلم تتوقع أن تلتقيهم اليوم، وبهذه السرعة...

مفاجأةٌ أربكتها فعلاً وقلبت مزاجها رأساً على عقب. إلا أنها لم تستطع التهرب من هذا اللقاء الأسطوري، فإذ بها تقف بينهم، وترمي الكرة في ملعبه. سترى كيف سيتصرف؟ كيف سيتهرب من حضورها المباغت؟ أتراها أسعدته بطلتها الفجائية، أم أحرجت صورته أمام نفسه وأمام أسرته؟ ماذا تراه سيفعل؟

اقتربت منه فصافحها! عجيب حقاً!

ها هو يصافحها الآن ببرود من يراها لأول مرة، ويجلس قبالتها صامتاً وكأنه لم يكن غافياً في حضنها يوماً كاملاً... ها هو يصطنع العفاف، مثلها، ويلاعب ابنته محاولاً تجاهل وجودها. يا لسخف موقفها!. اختلطت مشاعرها فجأةً وتلاطمت أفكارها، راحت تراقبه وهو يداعب وجه ابنته والحنان يفيض من عينيه... كم كان رائعاً! لن تنسى عذوبة صوته وهو يحدثها عن الألعاب التي سيشتريها لها وعن الملاهي التي سيصحبها إليها.

أما زوجته، فتلك حكايةٌ أخرى. ربما بدت لها للوهلة الأولى امرأةً عادية المظهر، هادئة الملامح أو باردة الحضور، لكنها، وبعد أن حدقت ملياً إلى عينيها، أدركت أنها حتماً امرأةٌ من عالمٍ آخر لا ينتمي إلى عالمه، ولا يحاكي قلبه...

قد تكون امرأةً مثاليةً بمقاييس البشر، ولكنها بمقياس الحب، وبمقياس عينيه، امرأةٌ قطبيةٌ لا يمكنها يوماً احتمال نيران براكينه ولا الانصهار بها... عاجلها الشعور بالأسف عليها قبل الغيرة منها. أسفت على امرأةٍ، لم تستطع أن تسعد رجلاً بهذا الدفء... ولم تعرف كيف تعجن قلبه بماء أنوثتها... هي حقاً امرأةٌ تستدعي الأسف لأنها لم تُجد العزف على أوتار قلبه، ولم تفقه حرفاً واحداً مما خطه الوجد بين سطور عينيه. فهل كان يعيش معها منذ البدء أزمة لغةٍ لم يفقهها قلبه، أم أنه حبٌّ عاجله الشتاء فذبلت وروده شيئاً فشيئاً، في حديقة الزواج؟

أخيراً، انسحبت من الصالة بلطف، كنسمةٍ على عجل، مخافة أن تقرأ زوجته ما نقشت يداه على جسدها، أو أن تشتم عطره المنبعث من كل خلاياها... انسحبت، وقررت أن لا عودة إلى الوراء مهما كلفها الأمر. لينتهِ زمن الحب المسروق من أحضان الآخرين، وليستعد كلٌّ موقعه وممتلكاته.

انسحبت أخيراً، وعادت صفر اليدين، إلا من بعض ذكرياتٍ بطعم الخيبة المرة... يا لهذه الكذبة الضخمة التي احتمت في ظلها شهوراً!

ها هي الآن تستفيق من سباتها وتكشف عورة الحقيقة البشعة: هو ليس لها ولن يكون، فلتسحب مراكبها من عمق محيطه ولترسُ على شواطئ العقل والمنطق. لن يشتري حباً مهما غلا ثمنه، بمصير عائلةٍ بأكملها. فهو عاقلٌ جداً... وإن أسكره الغرام لبعض الوقت.

فماذا تنتظر منه؟ وإلى أين سيجرفها طوفان حبه؟ ماذا تتوقع منه؟ هل سيتلف عشر سنواتٍ من حياته ويرمي بها في سلة المهملات؟ وإن استطاع أن يتخلى عن ماضيه بهذه البساطة، فهل سيتخلى عن ابنته أيضاً؟ مستحيلٌ طبعاً... لماذا إذن تحجب عن عينيها نور الحقيقة وتستسلم لحبٍ سيحتجزها في الظل إلى الأبد، فما من مخرجٍ شرعيٍ أو اجتماعيٍ آخر... الظل، هو الخيار الوحيد أمامها...

انسحبت والخيبة تسابقها الخطى ونسمات عطرها تهدهد ذاكرته، وتعذبه... عادت إلى غرفتها والدموع تملأ وجهها. لن تراه ثانيةً، فلا اللقاءات ستجدي ولا الغرام سينسيها الألم الذي قد تتسبب به لزوجةٍ وابنةٍ لا ذنب لهما، سوى أنهما تشاركتا معها في قلبه عن غير قصد، وكان لهما منه حصة الأسد. لن تواعده بعد اليوم، ستمخر عباب النسيان، وإن عاكستها الرياح.

استجمعت قواها، أخيراً... تناولت قلمها، وبدأت تستحضر الكلمات. ستكتب إليه الآن، ستقص عليه حكايتها كما لو كان شهريارها، ستخبره بعذاب الحب حينما يفتك بقلب امرأة... ستخبره كم أحبته، وكم سيصعب عليها فراقه. ولكن، ليس من حلول بديلة أمامها...

وإذ بعقدة لسانها قد حلت فجأةً وانفلتت في إثرها سبحة الكلام وأول الغيث قطرة...

حبيبي...

كل عام وأنت حبيبي... وكل يومٍ وأنت خطيئتي...

حبيبي... كم كنت أرغب أن أكون اليوم بين يديك، نراقب زحف العمر معاً، ونسرق من جعبة الوقت بعض لحظاتٍ لنا... لنا وحدنا، لا ينازعنا فيها أحد... لحظاتٍ من عمر الصمت الذي لطالما عزف على نغمات قلبينا أحلى سمفونيات الحب...

حبيبي، كم كنت أرغب أن أكون معك، لأتأمل عينيك وأنت تحتضن عامك الجديد، باندهاش الأطفال. وكم كنت أرغب أن أرسم على شفتيك آخر قبلي الخجلة، ولكن، ويا للأسف... لقد سلبتنا الأيام حرارتها واستباحت طعمها... أتراك تظن مثلي أن لقبل الوداع على شفاهنا طعماً آخر، واحتراقاً آخر، تماماً كما للحب في الأربعين بريقٌ مختلف وصهيلٌ صاخب؟

حبيبي، ليس إلا الشوق... الشوق فقط، وبعض ذكرياتٍ ندية، هي كل ما بقي مني، وكل ما بقي لي اليوم. بعد أن قررت الرحيل بعيداً عنك...

صدقني، هو الشوق... كل ما تركته لي من إرث عينيك. كل ما زرعته شفتاك في زوايا وجهي. ها هو يتفتح الآن، يورق على صفحة خدي، يملؤهما تورداً وسحراً. هو الشوق، كل ما رسمته يداك على جسدي... غيماتٍ من حنينٍ خفي، وغاباتٍ من رغبةٍ آثمة.

الشوق حبيبي، هو كل ما بقي وما سيبقى بيننا، مهما ابتعدنا ومهما شغلتنا الأيام... وهو الذي يحملني الآن إليك على بساط أوراقي السحري... علِّي ألتقيك في سراديب الأحلام، لأقول لك كم سأشتاق إليك...

أحاول أن أغفو الآن، أن أنسى. فتلمع الصور أمامي، ويسري الحنين في شراييني.

ها نحن... نفترق... ها نحن... نطفئ ابتساماتنا ونرميها على رصيف الماضي كما لو كانت أعقاب سجائر منهكة... ها نحن... نغتال فرحتنا وهي في ريعان الشباب...

لو أمهلتنا الحياة قليلاً، حتى الصيف... لو أنها أجلت محاكمة عواطفنا ومنحتها حق الاستئناف، وانتظرت فصلاً آخر؟ فلا أظلم من النهايات التي كُتِبت سطورها في عز الربيع...

إنه نيسان حبيبي، نيسانك... وهل أجمل من مواعيد نيسان؟

حبيبي... ربما كان الفراق إرادتنا نحن... وربما كان إرادة الحياة ومنطقها، لست أدري... دعك الآن من كل هذا... التفت إلي قليلاً قبل أن نفترق، وإلى الأبد. انظر في عيني كما كنت تفعل دائماً، تملَّ منهما، نم فيهما إن شئت ولا تبالِ، فلن يعبر النور إليك إلا منهما...

لا تقلق حبيبي، فأنا لن أحاول استرجاعك يوماً... هو كلامٌ ليس إلا. وهل بقي في جعبتي غير الكلام؟ دعني أتكلم إذن وأصغ إلي جيداً، فقد تكون هذه آخر كلماتي إليك ومن بعدها... النسيان.

انسني حبيبي، ولا تطع قلبك... ، ففي ذلك سعادتك...انسني ولا تتردد لحظةً واحدة... ولكن كن يقظاً، ففي لعبة النسيان، عليك التخلص مني دفعةً واحدة. إياك والتقسيط، لأني وبذريعة الفوائد العشقية قد أورطك في عواطف تراكميةٍ طويلة الأجل، وعندئذ سأتغلغل من جديدٍ في كل ذرةٍ فيك وسيستحيل إبعادي عنك مرةً أخرى...

حبيبي، ربما كنت حلماً أرهقك يوماً، بلا جدوى... أو زهرةً نثرها القدر على عتبات قلبك خطأً، فامتلأت بعبيرها، وتمنيت لو ينساها القدر لديك، كي تغلق عليها نوافذ

عينيك وتسكر بعطرها...

وقد أكون محطةً بعيدةً فاتك قطارها ذات يوم، واستفزك غموضها، فسافرت إليها سيراً على أحلامك، وأرهقك المسير فلم تصلها إلا بعد فوات الأوان.

لست أدري... ربما كنت كل ذلك، وربما لا شيء من ذلك... ولكني كنت حتماً حبيبتك، تلك التي امتلأتَ بها يوماً فأفرغت لها جيوباً إضافية، حتى لا يفوتك شيءٌ من ملامحها... أنا هي، حبيبتك... ولكن، عليك الآن أن تقنع نفسك بأني كنت مجرد نزوةٍ عابرة، لونت حياتك بفرح عينيها العسليتين، حتى تستطيع الصمود أمام جبروت الشوق عندما سيوقظ حواسك كلها...

هو الشوق حبيبي، وهو الفراق...

لعلنا لم نخطط يوماً للقائنا، فرتبه لنا القدر، ولعلنا لم نفكر في الفراق أيضاً فاستعجلته الأيام لنا... ولكنه كان الحقيقة الحتمية لعلاقتنا... نهاية الفصل الذي وهبته لنا الحياة. فصلٌ احتضن قلبينا بين ذراعيه وجرعهما الغرام قبلةً قبلة... أتعلم، ثمة سرٌّ غريبٌ يخفيه توقيت علاقتنا. لست أدري، أشعر بشيءٍ من التفرد وأنا أعبر دائرة حياتك من زاويتها الأربعين... فلطالما كان عمراً يكتنفه الغموض والسحر والرغبة الهاربة...

الأربعون... محطةٌ إجبارية يتزود فيها معظم الرجال بوقود حبٍّ عابر، مختلف النوع والرائحة عن كل ما جربوه من قبل... فهل كنت مختلفة؟؟؟ ربما لم أسألك يوماً عن كل اللواتي عرفتهن قبلي... عن نزواتك، عن شكل نسائك، عن لونهن، وعطرهن وطعم قبلهن... ولكن بي فضولٌ غريبٌ لأرى تلك التي ستشغل عينيك بعدي... ومهما قلت إني الأخيرة، لن أصدقك... فلعينيك بريقٌ يدمن الحب ويستجلب النساء،

تماماً كما يستجلب الضوء الفراشات. لست الأخيرة في فهرس نسائك ولست كل محبوباتك، أما أنت، فقد كنت كل ذنوبي، لأني قبلك لم أعرف الخطايا... وها أنا اليوم أحاول التبرؤ منك بالنسيان... وسأنجح... وعندما يتآكلني الشوق ويستعصي علي الصبر... سأنظر في عين الله وسأسأله نسيانك ومن ثم النسيان...

حبيبي، فلترحل بعيداً... ولتنسني... ولتكمل مشوار حياتك كما تشاء، وإن خطرت يوماً ببالك، فابتسم، وادع لي... سأمضي الآن وأتركك لعائلتك...

لا تنتظرني مطلقاً بعد اليوم، فلقد أخطأَنا الموعدُ ذات بدء، ولا أظنه سيعبأ يوماً بحجم خسارتنا...

ما زلت، وسأبقى أحبك...

عطر الذكريات

جلست خلف مقود سيارتها وأسلمته أمرها. كانت الشمس تغفو على أطراف السماء، والشفق يزحف نحوها، يدثرها بعباءته.

لم تكترث ولم تعد أدراجها. كانت تجالس البحر كل غروب من على شرفتها، تستمع معه إلى معزوفة المساء. إلا أنها آثرت الخروج اليوم. فقد كانت على حافة البكاء، ولن تزيدها ألوان الشفق إلا كآبةً، وإن كانت عابرة. غادرت دون وجهةٍ محددة، تاركةً كرسيها الهزاز وحيداً على الشرفة.

كان الطقس حاراً والطرقات تضيق بالمارة هنا وهناك. بعضهم في طريق العودة إلى المنزل، والبعض الآخر بالاتجاه المعاكس، خرج للتنزه هرباً من موجة الحر التي تلازم البيوت في هذا الوقت من فصل الصيف.

كانت تنظر من خلال زجاج عربتها، فتعجب لهذه الفسيفساء البشرية التي تلون مدينتها. هنا، شبابٌ يتزاحمون في المقاهي، يجالسون شيشتهم وينتظرون على أبواب الغد، وهناك على الطرف المقابل شيبٌ، ما ملوا العراك مع الحياة، يرتقبون بذعرٍ مفاجآت الزمن.

وعلى طوال الطريق نساءٌ، على موعدٍ مع أقدارهن. منهن من يستعن على حرارة الجو بالحجاب، وأخرياتٌ سقطت حشمتهن منهن سهواً في موسم حر. ورجالٌ اختلفت أساليبهم وتشابهت نياتهم، يلهثون خلف صيدٍ أنثوي، يخفف عنهم وطأة الصيف وملله.

عجيبةٌ هي هذه المدينة، ما أرحب صدرها! وما أوسع أحضانها! شعرت كأنها لا

تعرفها حقاً. كأنها لم تعش طفولتها في تلك الأزقة المتمردة، ولم يستهلك صباها ذلك الكورنيش الحالم بعناق البحر.

شعرت كما لو أنها كانت تعيش بعيداً، في كوكبٍ آخر، اسمه العمل. فمنذ مدةٍ طويلةٍ وهي لا تعرف إلا طريقاً واحداً، يحملها صباحاً إلى مكتبها ويعود بها مساءً محملةً بكمٍّ من الإرهاق والتعب.

تسارعت إلى ذهنها صورٌ من الماضي، ولمحت في ذاكرتها وجوهاً لطالما ألفتها في صباها. أين أصبحوا اليوم؟ أين اختفى كل أولئك الذين كبرت معهم وجلست معهم في مدارج الجامعة؟ أين ذهب أولئك الفتية الذين أحبتهم يوماً، وأحبوها؟ لم يبق منهم أحد. ربما تزوج بعضهم وأنجب، فيما البعض الآخر يلهث خلف أمجاد العمل.

وهي، أين هي من كل ذلك؟ هل حققت ما كانت تطمح إليه يوماً؟ سؤالٌ قلما طرحه عليها الوقت. فهي لم تتزوج مع أنها وقعت في الغرام مراتٍ عديدة، وها هي تعمل في إحدى الشركات العقارية بالرغم من ميولها الفنية ودراستها للأدب. تناقضٌ عجيب!

شعرت بالإحباط يغزوها بغتة... كمن يرى الدنيا تركض أمامه بكل سرعتها، وبدل أن يركض ويتمسك بها، فإنه يراوح مكانه، ويستسلم لقدره.

كانت سيارتها تقودها إلى لا مكان، في شوارع ما اعتادت التجوال فيها منذ وقتٍ طويل. إناراتٌ، ضجيجٌ ونسماتٌ رطبة. ما من خياراتٍ أخرى تلوح أمامها. ضاقت بها أفكارها وهي تحاول أن تجد سبيلاً تبدد به شعورها بالملل. كانت قد بدأت منذ الأمس إجازتها الصيفية، ولم تكن قد اعتادت أن تقضي العطلة بمفردها، خصوصاً بعدما مدد والداها اقامتهما عند أخيها في الخليج، لأسبوعين إضافيين.

ماذا عساها أن تفعل؟ استجمعت أفكارها بحثاً عن حلٍّ ما. فمن المستحيل أن تبقى

وحدها أسبوعين آخرين. تساءلت، كيف يمكن لبعض الناس أن يعيشوا بمفردهم دون أنيسٍ يخفف عنهم تباطؤ أيامهم؟ فلطالما أرعبتها فكرة الوحدة القاتمة، خصوصاً في خريف العمر!

أن تحتاج إلى بعض الانفراد بنفسك من وقتٍ إلى آخر، أمرٌ عاديٌّ جداً وضروري أحياناً. ولكن أن تعيش وحيداً باستمرار، بلا وجهٍ يدفئ برد لياليك ويضخ شمسه في صباحات أيامك. يشاركك في قهوتك وفيروزك، يروي لك أخباراً عاديةً تماماً ومملةً أحياناً، وتنتظره في سهراتك ليشاهد معك برنامجك المفضل. ما أقسى ذلك حقاً!

شعرت بانقطاع الشهية فجأةً مع أن فكرة العشاء في أحد المطاعم البحرية تبدو مشجعة. إلا أنها آثرت العودة. وفي الطريق لمعت أمامها فكرةٌ معقولةٌ جداً. لماذا لا تسافر؟ لماذا لا تلحق بعائلتها وإن لأيامٍ قليلة؟ فستسعدهم بوجودها حتماً، وستحظى بلحظاتٍ دافئة وسط حنانهم ومحبتهم.

اتصلت على الفور بإحدى شركات الطيران وحجزت لها مقعداً في رحلة الغد. كان الإقلاع صباحاً في تمام العاشرة. شعورٌ مفاجئ تملكها وهي توضب حقيبتها الصغيرة. شعور مبهمٌ لا يمت إلى الفرح بصلة، ولا يعتريه شيءٌ من الكدر. كأنه خلطةٌ سحريةٌ تمازجت فيها نكهات المشاعر كلها حتى أصبحت لا لون لها، لا شكل لها ولا طعم.

استيقظت باكراً على صرير الباب تداعبه نسمات الصباح الخجولة. جهزت نفسها واستغربت أن لا يكون لديها أي حافزٍ للسفر باستثناء درء الملل. كأنها اعتادت ملازمة المنزل، حتى أصبح الخروج أو السفر مهمةً تستحق التفكير...

استفاقت حماستها في المطار على وقع ضجيج المسافرين، فمنذ صغرها وهي تهوى

المطارات. كانت تأنس بازدحام الوجوه، باختلافها، وبكمِّ الأسرار التي تختزنها.

تذكرت سيول الدموع التي كانت تذرفها عندما كانت تودع والدها قبل سفره الدائم للعمل في الخارج. كم كانت تشعر بالغربة بعيداً عنه. وكم كانت تكره الوداع، وما زالت...

ستسافر بمفردها هذه المرة، دونما أحدٍ يودعها هنا أو ينتظرها هناك؟

أنهت جميع المعاملات الروتينية، وذهبت لقضاء ما تبقى من وقتٍ أمامها داخل السوق الحرة، علها تبتاع بعض الهدايا التي لم تكن في حسبانها. فوجدت نفسها وبدون تفكيرٍ مسبق، في حديقة العطور الفرنسية...

اقتربت من القسم الذي تبتاع منه عطرها الدائم وبدأت باختيار ما يلزمها من هدايا للعائلة...

كان الازدحام في هذه البقعة الصغيرة كبيراً نسبياً. أناسٌ بعضهم يفاضل بين رائحةٍ وأخرى، وبعضهم الآخر يبتاع. وآخرون يتحايلون على انتظار الطائرة بمفاصلة الأسعار.

فجأةً، تناهى إلى مسامعها صوتٌ ذكوريٌّ يسألها بهدوءٍ لافت: «من فضلك سيدتي، هل ترشدينني إلى عطرٍ نسائيّ مميز؟»

التفتت إلى يمينها. كان رجلاً في أواخر الثلاثينيات. متوسط القامة، وعذب الصوت. لم تستغرب طلبه ذاك، فهي تظن أن معظم الرجال، وبالرغم من ضلوعهم في الحب وخبرتهم الطويلة بالنساء، لا يتوغلون كثيراً في مجاهل العالم النسائي، ولا يفقهون تركيبته الفريدة. لا تعنيهم تفاصيل إعداد وجبة الجمال الذي ينشدونه في المرأة، ولا يهمهم الاستفسارعن محتوياته ومراحل إعداده. لا يكترثون إلا للنتيجة النهائية،

للمذاق.

وحدهن النساء يهتممن، عن قصدٍ وعن غير قصد. بالوعي وباللاوعي. وحدهن النساء ينهكن الوقت بتفاصيل كل الأشياء. يرسمن لها أبعاداً وردية ويحطنها بأسوار عاطفيةٍ وألوان شاعرية...

ابتسمت عيناها قليلاً وأمسكت بأحد العطور وقالت له: «هذا العطر رائع. لا أعتقد أن ثمة امرأةً يمكنها أن تقاوم سحره، بإمكانك أن تشمه بنفسك».

أخذ منها العبوة الصغيرة، وشكرها بابتسامةٍ مهذبة وابتعد. لم يجرب حتى أن يفتح العلبة... رأته من بعيد، يسرع الخطى باتجاه مقهى المطار. كان لافتاً حقاً...

انتهت أخيراً من شراء عطورها. استقلت عربة أفكارها وتوجهت نحو بوابة الانتظار. كان الوقت المتبقي للإقلاع يتقلص ببطء. أخرجت زاد رحلتها، وبدأت بالقراءة، حتى بدأت الدقائق عداً تنازلياً وحان أخيراً موعد الالتحاق بالطائرة.

هناك، كان الركاب مشغولين بترتيب أمتعتهم في الخزائن العلوية. حقائب وأكياس من كل الألوان والأشكال. أما هي، فكانت فارغة اليدين إلا من بضعة عطورٍ دستها في حقيبة يدها وجلست تنتظر قرب النافذة.

«ثلاث ساعات من التحليق فوق الغيوم. عساها رحلةً آمنةً وسريعة». تمتم قلبها بخشوع. وفيما الجميع يتهيأ للإقلاع، لمحت من البعيد وجهاً مألوفاً يعبر الصفوف ويتقدم باتجاهها. كان هادئاً جداً. كان هو... صاحب العطر...

لم يخطر ببالها أن تكون لهما الوجهة ذاتها، ومن المؤكد أنها لم تتوقع أن يشغل أيضاً المقعد المجاور لها. فقد كانت تلك مفاجأة الرحلة. أجمل ما لم تنتظر! ما أروع الأشياء عندما يرتبها القدر! يحوكها بخيطان المصادفة وبتلقائيةٍ عالية الجودة.

كان ينظر إلى أرقام المقاعد بحثاً عن كرسيه عندما وقع نظره عليها، في المقعد المجاور له. أومأ إليها بابتسامةٍ تنم عن معرفةٍ مسبقة. رتب حقيبته في الخزانة المخصصة، وجلس بقربها، يفصل بينهما كرسيٌّ شاغرٌ إلا من أحلامها، ومسافةٌ صغيرةٌ تشغلها الأسئلة.

ضاعت مشاعرها منها في غمرة المفاجأة، واستغربت فرحتها الواضحة بوجوده، مع أنه لم يظهر أي اهتمامٍ بها.

أخيراً أقلعت الطائرة وبقي المقعد بينهما شاغراً فانبسطت أساريرها. تابعت قراءة الرواية وهي تحاول أن تداري بتلك الصفحات الصامتة آثار الارتباك على ملامحها. أما هو، كطفلٍ أعياه طول السهر، رمى برأسه على المقعد واستسلم للنعاس.

كانت تلتفت إليه خلسةً بين الحين والآخر، تحاول أن تفك ألغاز هدوئه الآسر. كم كان يبدو وسيماً بلحيته الخفيفة، وملامحه الجذابة. ثمة شيبٌ متفرقٌ هنا وهناك يغزو شعره الكثيف ويضفي عليه مزيداً من الرجولة. اختلست النظر إلى يديه، كانتا أكثر سمرةً من وجهه، خاليتين من أي علامات ارتباط.

تعجبت من فضولها وأخجلها اهتمامها بتفاصيل وجهه. أشاحت بنظرها بعيداً عنه كمن يهرب من تهمةٍ تتربص به، وأرخت بعينيها على سطور الرواية، تشبعها تأملاً خالياً من أي تركيز. كانت أفكارها تأخذها باتجاهه.

«من تراه يكون؟ لم كل هذا الهدوء الذي يكتنف ملامحه؟ لمن عساه اشترى ذلك العطر الفرنسي؟ أمتزوج هو، أم عازب؟ أم تراه اعتزل فكرة الارتباط كلياً؟» كان كل شيءٍ فيه يستفز فضولها.

أما هو، فلم يهنأ طويلاً بإغفاءته تلك، واستيقظ على صوت المضيفة وهي تستعلم

عن طلب جارته: «... قهوة».

فرك عينيه كمن كان يغط في نومٍ عميقٍ وطلب لنفسه أيضاً: «... قهوة».

التفتت إليه سريعاً وابتسمت لتطابق ذوقيهما في الشراب ثم أردفت كمن يعتذر عن ذنبٍ عظيم: «آسفة، لم أقصد أن أوقظك.»

«لا بأس، ليس بالأمر المهم. غالباً أنا لا أحبذ النوم في الطائرة، لكني أمضيت الليل مستيقظاً فغلبني النعاس». ثم ساد الصمت.

استنجدت بكتابها هرباً من برود الموقف. فلم يكن لديها ما تقول، أو بالأحرى لم تجد الشجاعة لتقول ما أرادت. كانت تنتظر منه المبادرة بالحديث. وبعد هنيهاتٍ من السكون التفت إلى كتابها وأطلق جملةً تعجبيةً اغتالت شرودها:

«روايةٌ رائعة حقاً! هل هذا جزؤها الأول؟»

«نعم، لقد بدأت قراءتها للتوّ، وهي تبدو شائقة بالفعل. هل قرأتها؟»

«منذ زمنٍ بعيد، عندما كنت شاباً. كان لدي المتسع من الوقت، وكنت حينئذ مغرماً حتى النخاع.»

أرادته أن يستفيض أكثر، فهي في غاية الفضول. عندما كان مغرماً... يعني أنه لم يعد كذلك، تراه تعثر كثيراً في مطبات الحب، فغير الطريق؟ أم لعله كمعظم الرجال أغرم ذات يومٍ حتى الثمالة، فتزوج. ومع مرور الوقت استفاق من سكرته مخدر المشاعر، ليجد زوجةً كانت يوماً حبيبته، تنتظره فوق ضريح الذكريات.

أرادت أن تخبره أنه ما زال شاباً، ووسيماً، ولائقاً بالحب، لكنها جبنت وتلاشت الكلمات من فمها فاستبدلتها بتعليقٍ واقعيّ إلى حدٍّ ما:

«من اللافت أن يهتم الرجال بقراءة الروايات العاطفية، فهي ابتلاءٌ أنثويٌّ محض. هل أنت شاعر؟»

«لا، أبداً ولكن هذا الكتاب كان أول هدية حبّ حقيقيّ حظيت بها، وكان من الصعب أن أتجاهله. ولكني حقاً استمتعت بقراءته...»

كان للكلمات على شفتيه وقعٌ مختلف، ربما هي لكنته المدنية الواضحة، أو لعلها عذوبة صوته الخافت. لكنها لاحظت أنه يتحدث عن ذلك الحب بحنينٍ ملتبس.

أرادت أن تسأله: «ما سرك سيدي؟ ما سر عذوبتك؟» أرادت أن تصغي إلى عينيه، تسردان عليها مغامرات قلبه، لكنه اعتذر منها قائلاً: «أنا آسفٌ حقاً، قطعت عليك لحظات استرسالك في القراءة». ثم تأهب بسرعةٍ دون أن يمنحها فرصة الرد. فتح الخزانة العلوية وأخرج منها جهاز حاسوبه، ثم انكب عليه، كمن ينجز عملاً طارئاً.

بدا لها الوقت بطيئاً وهو يشير إلى الثلث المتبقي من عمر الرحلة، شعرت ببعض الكسل في جسدها بسبب جلوسها في ذلك المقعد لوقتٍ طويلٍ، دون حراك. عدلت من جلستها ونظرت من زجاج الطائرة، كانت الغيوم تبتلع السماء.

فكرت، كيف عساها أن تستأنف حوارها معه؟ حاولت أن تسترعي انتباهه ببعض الالتفاتات العابرة، إلا أنه كان واضح التركيز.

نظرت سريعاً إلى وجهها في المرآة، في حركةٍ نسائيةٍ اعتيادية. كانت تبدو مرهقةً قليلاً، لكنها جميلةٌ رغم كل شيء... هل لفت انتباهه شكلها؟...

راحت الأسئلة تتقاذفها والفضول ينهشها. ولاحظت أنه بدأ يتململ هو أيضاً في مقعده. أغلق الحاسوب ووضعه جانباً، فاستجمعت الكلمات على شفتيها وقذفتها في أذنه بسرعةٍ خوفاً من التراجع وقالت: «أرجو أن يكون العطر قد نال إعجابك...»

فاجأته جملتها، كأنه لم يتوقع سؤالاً مماثلاً لكنه أجابها بتلقائيةٍ لبقة: «في الحقيقة لم أجربه، لكنه يبدو جذاباً فعلاً. لا شك لدي في الذوق الرفيع لسيدةٍ مثلك..»

أعجبها إطراؤه مع أنه لم ينم إلا عن ذوق رجلٍ شديد اللياقة، لا أكثر، كما أنه أثار فضولها النسوي، فلمن يبتاع هذا الرجل عطراً مميزاً؟ لزوجته؟ أم لحبيبته؟

وفيما هي تبحث عن جوابٍ لسؤالها، رمقها بنظرةٍ مباغتة متفحصاً وجهها ثم شرد نظره قليلاً. قرأت في عينيه كلاماً كثيراً، مبهماً. كأنه أراد أن يخبرها شيئاً ما، لكنه عدل عن ذلك، واحتفظ به لنفسه.

جال في بالها الكثير من الأسئلة، لكنها كانت تفتقد الجرأة، فلم تتمكن من طرحها عليه. وعاجلها هو بسؤالٍ عابر: «هل تسافرين اليوم بداعي العمل؟»

أفرحها السؤال. كان بمثابة جسرٍ يعبر بها إلى عالمه ويكسر حواجز الصمت بينهما. أجابته باقتضاب متعمد عله يحدثها قليلاً عن نفسه: «في الواقع هي زيارةٌ قصيرة أطمئن فيها على أخي وأروح عن نفسي من عناء العمل. وأنت؟»

«لا أنا لي وضعٌ مختلف، قلما أسافر بغية التسلية. وليس لدي سكنٌ ثابت فأنا كثير الترحال، دائم التجوال... أحاول أن أوزع الوقت بين عملٍ يفرض عليّ السفر المتواصل، وأسرةٍ ملت التنقل معي بين شرق الدنيا وغربها فاختارت لها سكناً دائماً، بعيداً عني. وها هي الأيام تسرع بي من طائرةٍ إلى أخرى دون توقف...»

أوجعها كلامه واشتمت في صوته رائحة حزن مرتعش. كأنه يعيش غربةً لا حدود لها. كانت تريد أن تشاركه همه، أن تواسي وحدته. كانت تريد أن تتملى من صوته، أن تنزع عنه هدوءه ولكن... خانتها الكلمات ويبست في حلقها الجمل.

انتبهت فجأةً إلى صوت المضيفة وهي تذكّر بربط الأحزمة تهيؤاً للهبوط. كانت نهاية

الرحلة. نهايةٌ جاءت على وجه السرعة، فلم تمهلها ريثما تستوفي حديثها معه. فقد كانت لا تزال في بداية المشوار. كان صمت الهبوط يلقي بثقله على الجميع، يذكرهم برهبة الانتقال من عالمٍ مليءٍ بالأسرار والمخاطر إلى بر الأمان برغم كل عذاباته.

تأهب الجميع استعداداً للخروج. نظر إليها بودٍّ متمنياً لها إجازةً سعيدةً ورحل. تملكها الحزن للحظات وهي تراه يبتعد بهدوئه المعتاد ويختفي بين الحشود.

تسلمت حقيبتها وتوجهت بخطى متثاقلة نحو المواقف المخصصة لسيارات الأجرة. كان الجو في الخارج لطيفاً إلى حدٍّ ما.

استقلت تاكسي المطار. رمت بنفسها على المقعد وأغمضت عينيها. كان طيفه يداعب جفونها.

استغربت لهفتها عليه وافتقادها لوجوده، وتمنت لو أنها احتفظت برقم هاتفه، أو ببريده الالكتروني... تمنت لو أنها تجرأت وطلبت منه أن يقلها مثلاً... كم كانت ستسعد برفقته مجدداً... كم كان لديها من الكلام لتقوله له وربما الكثير أيضاً لتسأله عنه... ولكن، هكذا تكون الصدف السعيدة في حياتنا، خاطفةً مثل البرق، دافئة كلحظة حب، ومربكةً حد البكاء...

ولكن من يدري، لعل القدر يخبئ لها يوماً مصادفاتٍ أخرى ويخصها بمغامرةٍ من الطراز الرفيع...

راحت السيارة تجوب أحياء المدينة المزدحمة، غير عابئةٍ بما يدور في صدرها. بدأت أفكارها تتلاشى شيئاً فشيئاً، واستسلمت عيناها لمظاهر الترف الذي يغلف تلك الشوارع الواسعة. تبادر إلى ذهنها فجأةً وجه أخيها يبتسم لها، وشعرت بشوقٍ غريبٍ إليه.

وما هي إلا لحظات حتى توقفت بها العربة أمام المنزل، وتعالى صوت السائق مودعاً: «الحمدالله على سلامتك سيدتي...»

الانتظار

طال انتظارها على شرفة الآمال، في ذلك البرد الشباطي القارس. كانت تجلس بمفردها، تتكئ على حافة هواجسها وتنظر إلى تدافع الغيوم أسراباً باتجاه الغرب، مخلفةً وراءها أذيالاً رمادية منهكة.

لطالما أحبت أجواء الشتاء وأمطاره، لطالما أشعرها بدفء داخليّ عجيب، وأدخلها كهوفاً من الحميمية العذبة.

كان الوقت صباحاً: شمسٌ خجلة، رياحٌ تعبة وسماءٌ يخترقها السحاب. ما من شيءٍ يضطرها للبقاء خارجاً بمواجهة لسعات الصقيع التي كانت تخترق عظامها وتصفر داخل جسدها الصغير. ولكنها كانت مصرةً على البقاء هناك، عند حافة القدر، عله يمر فجأة، عله يذيب ثلوج انتظارها، فلطالما انتظرته ولم يأت.

ارتشفت قليلاً من قهوتها الساخنة وأبحرت بنظرها عبر الفضاء، تنظر إلى البعيد البعيد، تفكر في تلك الأيام التي أهدرتها على باب رجلٍ لا تعرفه. شهورٌ ثلاثة وهي تنذر صباحاتها له وتعقد آمالها على لقاءٍ وهميّ معه، وإن من بعيد... وهي لا تعرف حتى من يكون. لا تكاد تذكر من حضوره سوى عينين عسليتين وتحية... أيام انقضت وهي تجلس بمحاذاة الحب، عله يشعر بوجودها يوماً، عله يمر بها وإن خطأً.

كانت لا تزال تؤمن بأن الحب يولد أحياناً من همسةٍ واحدة، وأنه قد يترعرع في أحشاء الروح دون حاجةٍ إلى اسمٍ أو لقب. يكفيه دفء نظرة وبعض كلمات...
وكانت لا تزال تؤمن أيضاً بأن القدر سيأتيها يوماً، مباغتاً، محملاً بالحب، هدية

انتظارها، وبأن الأيام القادمة ستعزف لها حتماً لحن الغرام.

كان الرابع عشر من فبراير. زحمة عشاق، زحمة ورود، ولونٌ أحمر يملأ الواجهات وينبئ بليلة حبّ دافئة. كانت تعيش دوماً خارج إطار العشق ذاك، وتحيا داخل روزنامة حبّ خاصّ بها حيث لها وحدها خيار الزمان والمكان. لم يكن يعنيها أن تتلقى في يومٍ كهذا وروداً حمراء أو قبلةً لاهثة، كان يكفيها أن تلمح طيفه من بعيد، يخترق الضباب ويتقدم نحو شرفة منزلها ليلقي عليها التحية.

لم يكن بوسعها أن تنسى لقاءيهما اليتيمين هناك، في ذلك المقهى المقابل لبيتها. كأن الزمن توقف بها لحظة اصطدمت عيناهما على مسافة طاولة، على مسافة حلمٍ، ولد فيها منذ ثلاثة أشهر، ولا يزال إلى الآن ينبض بالحياة.

من يدري قد يعاود الزيارة، قد يأتي لرؤيتها، قد يعود هو أيضاً بحثاً عن عينيها.

ها هي منذ أشهر ثلاثة تجلس كل يوم على الشرفة، تحوك لقاءً ثالثاً تدفئ به برد لياليها، وتترقب بصمت صوته العذب يزحف إليها محملاً بسلالٍ من أشواق، نضجت على مهل.

استفاقت من شرودها، وإذ بالوقت قد مر سريعاً، على غير عادة. كانت المساجد المجاورة تعلن حلول الظهر والشوارع تعج بالوجوه. ولم يكن أمامها سوى الخروج بحثاً عن سبيلٍ لقتل الملل الذي استبد بها.

دخلت غرفتها ووقفت تحدث المرآة، تراقب بصمات العمر على وجهها. فالوقت يمر دون أن تشعر به وها هي في أواخر العشرينات، تراقب من بعيدٍ وقع أيامها. كم هي كثيرة التناقض!

غريبة هي! تكاد لا تعرف نفسها أحياناً... تارةً، تشع حيويةً وجمالاً، تلهث خلف

الدنيا كمن يريد أن يمتلكها بين يديه، وتارةً أخرى تتثاقل تعباً وتزهد في كل شيء حولها. فمنذ ثلاثة أشهرٍ وعجلة حياتها قد تعطلت بها أمام ذلك المقهى. تنتظر أن يأتي الفارس المجهول كي يرمم أحلامها. أخيراً قررت الخروج للتنزه هرباً من سطوة عزلتها. تزينت وتعطرت كمن يستدرج الحب إلى موعد. فمن يدري ربما يستجيب!

كانت طرقات المدينة تغص بالقلوب الحمراء المزينة والوجوه العاشقة. وكان الكورنيش على موعدٍ مع خطى العاشقين، لتسامره، وتقص عليه لوعات الحب، في يوم الحب.

كانت منذ صغرها تهوى السير على ذلك الكورنيش، تراقب حالة الاستنفار التي تعيشها المحال والمقاهي في أيام الاعياد. كان يشعرها بأنسٍ بهيج.

استوقفتها هناك، مكتبةٌ صغيرة تعرض بطاقاتٍ بريديةً بمناسبة عيد الحب. جالت بنظرها على ما استعرض فيها من كلامٍ لا يستخدمه العشاق إلا نادراً، وقررت أن تهدي نفسها معايدة حب، كمحاولة استجلابٍ للحظ.

ابتاعت بطاقةً صغيرةً زُينت أطرافها بورود حمراء وتوسطتها عبارةٌ كبيرةٌ صغيرة: «لأنك أنت، أحبك...»

وتابعت سيرها بلا خارطة طريق. ترسم في مخيلتها لوحةً زيتيةً للقاءٍ ثلاثي الأبعاد، واضح الملامح. تترقبه منذ وقتٍ ولا يأتي.

كان الشعور بالفراغ يتملكها في الفترة الأخيرة، عنيفاً ومؤلماً. وهو لم يكن يوماً دخيلاً عليها. ففي أوج بهجتها وانشغالها بالعمل والأصدقاء، كان الفراغ يتسلل إليها أحياناً من نافذةٍ منسية، تركها القدر مشرعةً في أعماقها بانتظار المجهول.

ها هي تسير وحيدة في يومٍ اعتاد الناس فيه السير ثنائياً، وتعجبت من مزاجيتها، إذ كان بإمكانها تمضية ذلك الوقت مع إحدى صديقاتها أو أحد أصدقائها، من الذين لا

ينتمون إلى عالم الثنائيات ذاك، فالمشابهون كثر، منهم من استقال من الحب ومنهم من ينتظره وما بدلوا تبديلاً. لكنها لم تكن ترغب أن يشاركها أحد في مشوارها العبثي وفضلت الوحدة رفيقاً لها، خصوصاً وأنها لم تكن جاهزةً للإنصات إلى أحد.

لن تنصت اليوم إلا إلى نغمة الشوق المجهول الذي يدغدغ مشاعرها منذ فترة.

شعرت بالبرد فجأة يستوطن أطرافها مع اقتراب المغيب. وتغلغلت في أنفها رائحة المطاعم هنا وهناك. لكنها لم تكن جائعةً فعلاً، فقد كانت مسكونةً بجوعٍ من نوعٍ آخر. إلا أنها توقفت أمام أحد المقاهي لاحتساء قهوةٍ ساخنة تعيد إليها دفئها وحيويتها. كان المكان رائعاً، هادئاً، لا يخلو من المحبين الهائمين، ونغماتٌ فرنسية الصدى تتعالى في الأرجاء. مشهدٌ رومنسيٌ بامتياز. شعرت للحظةٍ أنها تجلس في المكان الخطأ. فمعظم الحاضرين شبانٌ ربما تجاوزوا العشرين تواً، جاؤوا مع حبيباتهم، يوقعون أسماءهم في سجل نفوس الحب، دون شك منهم أنهم قد يصبحون ذات يومٍ مجرد حروفٍ يحاول الحب فك رموزها.

أخذها حلم أغنية «إديث بياف» إلى عالمٍ آخر واستفاضت شروداً كمن يحلم بوجه حبيب. وإذ بها تستفيق مذعورةً على وجهٍ يطل من باب المقهى. وجهٌ ألفته مخيلتها لكثرة ما نسجته، وجهٌ ملّته لطول ما انتظرته. ها هو يطل أخيراً بعد أشهرٍ ثلاثة تعادل قروناً بمقياس انتظارها. أخيراً تراه، خارج الحلم، في مكانٍ ما توقعته يوماً جديراً بحدثٍ على هذا القدر من التوقد.

اصطدمت عيناهما مرةً أخرى، دون وقوع إصاباتٍ من طرفه، أو هكذا بدا لها على الأقل. أما هي، فقد أعمت المفاجأة بصرها وتسمرت عيناها في مكانٍ ما، داخل عينيه.

لم يكن باستطاعتها، تحت وقع الصدمة، الإتيان بأية حركة. على عكس ما كانت تظن عندما كان يخطر ببالها هذا اللقاء الموعود. كانت تعتقد أنها ستحدثه، ستصافحه أو ربما سترتمي في أحضانه. لكن المفاجأة عطلت حواسها، ولم تجد غير ابتسامةٍ ترد بها على تحيته. ابتسامة اختزلت حنين دهرٍ بأكمله.

مر بمحاذاتها كمن ينتظر دعوة، وجلس إلى الطاولة المجاورة لها، على بعد خطوتين من صمتها. كانت تشعر أنه يسمع خفقات قلبها لشدة حرجها وذهولها، وهي تحاول أن تبدو منشغلةً بأي شيء إلا به. كانت كل ذرةٍ فيها تناديه، كل نفسٍ في صدرها يصرخ له. ودون أن تعي كيف ومتى، رأته يجلس إلى طاولتها، يختصر قروناً من اللهفة ويحاصر خجلها.

رقص قلبها من الفرح وشعرت بالدم يشتعل في عروقها. شعورٌ لم تعرف له مثيلاً في حياتها. ضاعت يدها بين كفيه وهو يصافحها محيياً وتمتمت ببضع كلماتٍ لا معنى لها. كانت تخشى أن يلمح ظله الساكن في عينيها، فلم تقو على النظر إليه.

باغتها بسؤاله: «أتنتظرين هنا منذ وقت؟»

لم تكن تملك الإجابة، شعرت أنها افتضحت أمامه وأن لهفتها عليه لونت خديها ونبرة صوتها. هو لم ينتظر جواباً منها، بل تابع: «لم أتوقع أن أراك هنا وبهذه السرعة.»

استجمعت قواها، وكأن كلمة «بهذه السرعة» أيقظتها. ماذا تراه يعرف عن الوقت؟ كيف عساه أن يشعر به؟ فهو لا ينتظر مثلها ولا يجول في عوالم الأشواق مثلها...

أجابته بصوت خافت: «حقاً؟ ولماذا تتوقع رؤيتي أصلاً؟»

«لست أدري، كنت أشعر أني سألتقيك مجدداً، ربما في مكانٍ آخر، ربما في ذلك المقهى. ولكني كنت واثقاً بلقائك يوماً.»

دوت كلماته تلك في قلبها كزلزال، ومنحتها بعض الثقة. فها هي قد جالت في فكره أيضاً، وإن مع فرق هائل بين حالها وحاله، إلا أن ذلك يكفيها. يكفيها أن تكون قد عبرت ذاكرته لمرةٍ واحدة.

كانت تصغي إليه بنهم، كأنها تروي ظمأها لصوته العذب وهو يحدثها عن عمله، وعن مشاريعه المستقبلية. كأنها تحلم. لم يكن يعنيها كل هذا. أن يكون كاتباً أو عاملاً أو طبيباً، لم تكن تهتم فعلاً، لأن ذلك لن يغير شيئاً في حقيقة إحساسها به. كل ما كان يعنيها أنه لمحها ذات مرةٍ تجتاز حدود تفكيره.

سألته معاتبةً: «كأنك لم تعد ترتاد مقهى حينا، فلم أرك هناك منذ شهور.»

«كنت مسافراً». أجابها كمن يعتذر عن ذنبٍ اقترفه متعمداً. «عدت قبل أيامٍ وكنت أنوي أن آتيه بالأمس لكن الظروف عاكست خطتي واستحوذ علي العمل. بالمناسبة، كنت سأذهب لأراك أنت فقط.»

ذابت في كرسيها من حرارة كلامه وارتجف صوتها ذهولاً.

«حقاً؟ لماذا؟ أنت لا تعرفني حتى». كانت تحاول أن تستفز بوحه بأسلوبٍ أنثويّ فطري، أن تستنطق غموضه، عله يشفي غليلها...

ولكنه أجابها بمكر رجلٍ يحترف النساء: «أنت لي، مذ رأيتك أول مرةٍ تحتسين قهوتك هناك، أدركت أنك ستكونين لي ذات يوم. كانت فقط مسألة وقتٍ ومكان. لكنني كنت سألتقيك حتماً في مكانٍ ما، فقد خلقت لي وستنتظرينني دائماً. ثقي بي.»

صعقتها كلماته، أشعلتها ورمت بها على رصيف الأسئلة. لم تعرف من أين تبدأ. في أي قمقمٍ ستحبس اعترافاته تلك. كانت تخاف أن تضيع حروف كلماته سهواً. تمنت لو أنها كانت تحمل كالمخبرين جهاز تنصتٍ لتحفظ كلامه عن ظهر قلب.

سألته بدلال أنثى: «من أين استوحيت كل هذه الثقة؟ أنا بالكاد لمحتك هناك للحظات ولا أذكر أني كلمتك حتى.»

وبعينين خبرتا ألاعيب النساء، حدق إلى عينيها كمن يوقد فيهما ناراً وقال لها:

«ربما لم نتحدث فعلاً، لكن عينيك قالتا لي الكثير، ولم أقو قط على النسيان. ثمة عيونُ تغتالك برصاص صمتها. ثمة أشخاص ترينهم أحياناً لبضع لحظات، لكنهم طغاة، يستعمرون كيانك دون مبرر، يحتلون أعماق وجدانك ويزرعون في كل جزءٍ فيك ألغام الحنين. وعبثاً تحاولين التمرد. لقد رافقتني عيناك طوال الأيام الماضية، ولم أشأ أن أنسى، فقد كانتا تدفئان صقيع غربتي.»

لم تجد ما تقوله له. أشقتها كلماته وناب دمعها عن الكلام. أرادت أن ترتمي في أحضانه، أن تدفن في صدره زفرات شوقها، أن تحكي له قصة صبرها. أرادت أن تكون له كما لم تكن لأحدٍ من قبل. لكنها ما اعتادت أن تسخو ببوحها...

نظرت إليه بعينين دامعتين فإذ به يفيض حناناً. احتضن يديها بين يديه وأكمل قائلاً:

«لن أنسى هذه الدموع ما حييت، سأشتاق إليك دائماً. ستكون عيناك بوصلتي مهما ابتعدت. غداً سأعاود السفر ولا أعلم كم سيطول بي الغياب، لكني سأعود، فأنت قدري. وستنتظرينني دائماً.»

أخرجت من حقيبتها البطاقة الحمراء التي ابتاعتها صدفةً، ووضعتها أمامه كمن يستودعه قلباً وقالت له: «هي لك، كنت أنا أيضاً واثقةً بعودتك. أرجو ألا تنساني حقاً. سأنتظرك»

ابتعد مودعاً وانتابتها فجاةً رياح الألم. تسلل إليها صوت حدسها هادراً متشفياً يقول لها: «لا تنتظري عزيزتي، لن يعود. ستجرفه أمواج الحياة بعيداً عنك. أقفلي باب

قلبك هنا، أغلقي على ذكرى لقائك هذا، فهو إرثك الوحيد.»

لملمت نفسها وخرجت من المقهى. كان المطر يتساقط غزيراً. اعتلت حزنها وعادت من حيث أتت. كانت مذهولة الخطى، مبهمة المشاعر، تتآكلها الأفكار وتنأى بها الأحلام.

لكنها ستنتظره حتماً... ستروي له كل ليلةٍ قصة صبرها، ستخبئ في عينيه مصابيح غدها، ولن تستسلم لليأس، فهي أصبحت له مذ وقعت رهينة عينيه...

زررت معطفها كمن يخفي تحته كنزاً ثميناً وتابعت سيرها تحت المطر. بدا لها كورنيش العودة هادئاً. تحسست يديها، كأنها تستذكر لمسته الدافئة، وراحت تردد أغنية «أديث بياف» وقلبها يعانق النجوم.

لن تنام هذا المساء، ستنسج من لون عينيه وشاحاً تدفء به حنينها كلما عصفت به رياح النسيان. وستبقى معلقة على شرفة الأحلام، تنتظر...

نساء

صفق الباب خلفه ومضى... زلزل عند قدميها جدار صمته الشاهق ومضى. بجملةٍ واحدة هد فوق رأسها جسور الحب الذي بدأت أسسه تتهاوى أمام عينيها منذ سنوات، والذي لطالما حاولت بصبرها أن ترمم ما تبقى من مداميكه الآيلة للسقوط الأخير...

صفق الباب ومضى، وكأنما أوصد إلى الأبد باب ذاكرةٍ أصبحت لفرط هجرانها خرائب تعشش فيها عناكب النسيان ولا يسكنها سوى أشباح الصمت...

بجملةٍ مبعثرة، مرتبكة، ركيكة، بعثر هدوءها، وقذف بأفكارها إلى النار دفعةً واحدة.

هي التي لا يهز سكونها ولا يضعف عزيمتها شيءٌ مهما حدث، وجدت نفسها معلقةً على حبل جملةٍ نسجتها شفتاه قبل أن يرحل... وإذ بها امرأة الضعف القاتل... امرأةٌ هشة، تدور في فلك أفكارها، تغرق في دوامةٍ من الحزن المر حيث لا تستطعم سوى وجع كلماته، ينسكب في قعر قلبها، يحرك رواسب الماضي ويتركها فريسة الألم...

«لن أتخلى عنك، فأنت أم أولادي، ولكني لم أعد أحتمل وتيرة حياتنا تلك، وأفكر في الارتباط بامرأة أخرى...»

وتوقف شهريار هذه المرة عن الكلام المباح معلناً النهاية، مستعيناً بنقطة انقطاعٍ في آخر السطر... سطرٌ جديد وتبدأ حكايةٌ أخرى...

هل سمعت في تلك الجملة اللعينة لفظ «امرأة أخرى» أم أنها تتوهم؟ هل أتى على ذكر «ارتباط»؟ هكذا... رماها بقنبلةٍ موقوتة الكلمات ملغومة الحروف واضمحل كسراب...

هل كان يستعجل السفر حقاً أم أنه لم يرد أن يتشظى بنيران انفجارها الداخلي فآثر الابتعاد... هل هذا ما كان يخطط له؟ فمنذ أيامٍ وهي تراه مرتبكاً، منشغلاً، يجلس على قارعة الانتظار تحت أضواء الترقب ويجتر صمته...

لم يحدث أن رأته على هذه الحال من قبل. هي الأنثى التي تشتم رائحة النساء عندما يعبرن أفكاره، لم يحدث أن فكرت يوماً بأن الأمر قد يكون جدياً إلى هذا الحد. فلطالما اعتبرت أنها، سحابة ملٍ ستترك خلفها بعض أمطار العتاب ومن ثم تختفي. ولكنها لم تعد كذلك بعد الآن...

هرعت إلى النافذة، وراحت تراقب رحيله بعينين مذهولتين. تتأمله من الخلف وهو يركب عربته بهدوء، يدير المحرك ببرودٍ سافر ويبتعد خلف الضباب...

شعرت بالبرد يزحف فجأةً إلى أطرافها، يتسرب إلى كل عصبٍ في جسدها، هي التي كانت تخلع بردها على عتبات صوته، وتدفأ بمجرد أن يفتح باب المنزل ويناديها... وهي التي كانت تمتلئ سكينةً وهي تراه إلى جوارها، يحتضن وسادة أحلامه ويغفو ملء جفنيه. كيف ستغفر له يوماً؟ كيف ستغفر له وهي تراه، في لحظة افتتانٍ كاذب، يبدد عمرها الذي وهبته له طوعاً من أجل أخرى؟

تسللت إلى أعماق ذاكرتها وأمعنت النظر، لكأن ذاك المشهد نفسه يتكرر أمامها من جديد... أتراه قدراً متوارثاً بالجينات، أم مجرد صدفةٍ عابرة؟ وهل كُتب على جبين البنات أن يعشن دوماً تجارب أمهاتهن، ويتقاسمن معهن ما ادخرت لهن الحياة من مفاجآتٍ مؤلمة؟ سنواتٌ مضت... عقدان أو أكثر، وما زالت إلى اليوم تذكر ذاك المساء، عندما بلغ والدتها من جارتهم خبر ارتباط والدها بإحدى تلميذاته في الجامعة. يومئذ لم تر الدموع في عيني أمها. كانت لحظات ذهولٍ قاتل، لحظات ألمٍ

مكابر.

كانت صغيرةً حينئذ ولم تفهم معنى أن يهجر رجلٌ امرأةً أحبته بكل لحظةٍ عمراً، ورهنت حياتها لبسمة عينيه، وانتظرت أن يبادلها للحظاتٍ فقط، شيئاً من هذا الحب، دون أن يخطر ببالها أنه ربما لا يعي أهمية وجوده بالنسبة إليها، ولا يعي كم تحتاج هذه المرأة من عواطف كي تبقى على قيد الحب وعلى قيد الوفاء. ها هي أمام مشهدٍ عمره أكثر من عشرين سنة، يمر أمام عينيها كشريطٍ مسجل ولكن بألوان مختلفة، ونفسٍ متجدد، فهل بقي لديها نَفَس؟ لعلها كانت محظوظةً أكثر من والدتها، إذ لم تنتظر خبراً كهذا في صحف الجارات أو في نظرات الصديقات، فقد فاق زوجها أباها جرأةً، أو وقاحةً، وقذف إلى مسامعها بالخبر بنفسه، ببرود من يحدثها عن ارتفاع الأسعار...

أخيراً، انتهت أولى ليالي الوحدة واستيقظت في الصباح التالي على آثار كوابيس فوق الكنبة. هناك، حيث رسا بها النعاس ليلة أمس. كانت شاحبةً ومنهكة وكأنها أمضت ليلتها في عراكٍ متواصلٍ مع القدر تارةً، ومع تلك ال... تارةً أخرى. أتراه معها الآن، يستبيحان عذرية الصباح معاً؟ من عساها أن تكون؟ أين التقاها؟ كيف؟ ومتى؟ تآكلتها الحيرة...

أتراها سكرتيرته الحسناء؟ تلك التي كلما صادف الزوجة بعض الحظ وعرجت على مكتب زوجها، تعثرت بضحكتها على بابه، أو اصطدمت بقوافل عطرها تسافر عبر أوراقه وملفاته وأشيائه، وحتى سترته... إنها هي على الأرجح، ومن تراه سواها؟ أم لعلها جارتهم الفرنسية، صاحبة العينين الزرقاوين التي كانت ولا تزال تحاصره بنظراتها كلما التقوها في بهو العمارة أو داخل المصعد؟

راحت الأسئلة تصول وتجول ثم تتصاعد مع رائحة الهيل المنبعثة من وعاء القهوة وهي تغلي على نار قلبها المشتعل غيرةً، وتعود وتسقط هي والقهوة معاً، دون انتباه من شرودها... تذكرت فجأةً مقولة جدتها قديماً بأن فوران القهوة فوق النار دليلٌ على قدوم زوار... لطالما صدقت كلام جدتها عندما كانت طفلة، ولطالما آمنت بقوة حدسها العجيب. أتراها ستصدق هذه المرة؟ هل ستعود به رائحة البن إليها؟ هل سيكون هو ذلك الضيف غير المتوقع في هذا الصباح الشتوي البارد؟

جلست قبالة النافذة، أمام صينية القهوة، تتأمل ترتيبها المعتاد. لم يكن ينقصها شيء... إلا هو. فمنذ سنواتٍ وهي تحرص على هذا الطقس الصباحي معه...

فنجانا قهوة بنكهة الهيل، مرفقان بصحن تفاحٍ جبلي الطعم، وكوب ماءٍ بارد، وبعض كلمات... لكأنها لحظات عبادة، في حضرة الصمت. هي تكاد لا تذكر الكثير مما كان يقول طوال الصباحات الماضية تلك، وعلى مدى الأعوام الثلاثة الأخيرة، لأنه وببساطة لم يكن يقول الكثير. كان يكتفي بمطالعة الجريدة ومتابعة أخبار العالم وهمومه مستعيناً بإيماءة رأسٍ تارةً أو تعليقٍ سريعٍ تارةً أخرى. وأما هي، فكانت تحدق طويلاً إلى صمته، تعاتب شروده في سرها، وكما فيروز، تردد «وانت قاعد حدي وعم فتش عليك، وخبِّي وجهي شوفك مدري مع مين... لو بعرف حبيبي بتفكر بمين.»

ربما كانت تشعر في لاوعيٍ منها أن القدر يتربص بها، ليجردها ذات يوم من حقها في ملكية قلبه واهتمامه، أو لعله ولعٌ أنثويٌّ فطري بكل ما يمت بصلةٍ إلى النكد النسائي ولوازمه.

بيدين مرتجفتين، أمسكت سماعة الهاتف لتحدثه، ولتطمئن نفسها بأنها لا تزال تشغل

جزءاً من عالمه، ولكن سرعان ما عدلت عن الاتصال به. فلتترك له هذه المرة على الأقل زمام المبادرة ولتنتظر، إن غداً لناظره قريب... حاولت أن تشغل وقتها وتفكيرها بالعمل المنزلي فوجدت يديها في عجزٍ تامٍ عن الإمساك بأي شيء. اتصلت سريعاً بصديقة عمرها لتفضفض لها عن مكنون صدرها وتستشيرها في أمرها فلم تجدها... فاستسلمت لأفكارها.

مر الوقت بطيئاً فاسحاً لها المجال لتستعرض صفحات عمرها معه، ولتغربل لحظات السعادة التي عاشتها في حضنه. تساءلت عن السبب الذي يدفع رجلاً متزوجاً للبحث عن امرأةٍ أخرى يرمي عند قدميها ما تبقى من عمره وأحلامه. قد يكون للبعض منهم أسبابهم وأعذارهم، ولكن ما يعنيها هو سبب رحيله هو، بعد كل الحب الذي عاشاه معاً... ألا يشفع لها ذلك الحب لديه، ألا يتوسط لها إخلاصها عنده، كيما يغفر لها تقصيرها مرةً أوغيرتها مراتٍ ومرات... قد تكون امرأةً غيورةً فعلاً، تطارده بأسئلتها أحياناً وتزعجه بشكها ودموعها أحياناً أخرى ولكن... ماذا فعل هو في المقابل لطمأنتها، وإشعارها بالأمان، وبأنه مازال يحبها وما زالت تلك الأنثى التي تتهاوى أمام ابتسامتها رجولته. ماذا فعل وهو يراها بعد عشرة أعوامٍ على زواجهما، تنتظر عودته مساءً بلهفة طفلٍ صغير ينتظر والديه؟ أكان هذا ما تستحقه فعلاً؟ ها هي تراه يلهث خلف أخرى متناسياً وعوده الغابرة لها، ضارباً عرض الحائط بكل ذكرياتهما معاً، تاركاً خلفه ولدين، لم يكلف نفسه حتى عناء السؤال عما يمكن أن يكون رأيهما أو رد فعلهما، حتى وإن كانا لا يزالان يافعين...

تعجبت كيف يتغير البشر إلى هذا الحد بمرور الوقت، وكيف تتبدل عواطفهم بسهولةٍ عجيبة؟ أهذا هو زوجها الذي عاهدها على الحب؟ تكاد لا تعرفه... تخيلته مقبلاً عليها من بعيد، متأبطاً ذراع أخرى، ملتصقاً بها، والابتسامة ملء فمه. تخيلته وهو

يحتضن تلك المرأة بين ذراعيه، يقبلها بالشفتين نفسيهما اللتين لطالما ألهب بهما جسدها هي، ويداعب شعرها بالحنان نفسه الذي كان يفيض من أنامله وهي بين يديه... فانهمرت الدموع على خديها.

عجباً! كم يحتاج الرجل من مشاعر ليفهم إحساس المرأة به وكم يلزمه من وحدات قياسٍ عاطفية ليتبين عمق الهوة التي تفصل بينهما في عالم الحب...

تسارع نبض الوقت عصراً وانشغلت بعودة ولديها من المدرسة، وبإعداد الطعام لهما والإشراف على واجباتهما. كانت موجات الحزن تعبرها من حينٍ لآخر، خصوصاً عندما تنظر في ساعة يدها وتتذكر أنه لم يهاتفها حتى الآن، وأنه مسترخٍ ربما في حضن غيرها...

يا لغباوتها! كيف تركته يرحل دون أن يخبرها بكل التفاصيل التي من شأنها أن تضع حداً لحيرتها وظنونها. كيف تركته يرحل دون أن تحدد موقفها أمامه في ما سيأتي؟ ربما كان لذلك تأثيرٌ في قراره. ولكن... هل حسمت موقفها فعلاً واتخذت قراراً؟ فهي إلى الآن لا تعرف ماذا تفعل ولا ماذا تقول له، ولا حتى في ماذا تفكر؟ أتفكر في الانفصال عنه إلى الأبد والتفرغ لتربية ولديها، أم تفكر في العيش معه في بيتٍ واحد كزوجين مع وقف التنفيذ، حفاظاً على عائلتها، كي لا ترى في عيني أبنائها ما ارتسم طويلاً في عينيها إبان انفصال والديها سابقاً، وللسبب نفسه. فهي لا تزال تذكر إلى الآن تلك الحرقة التي كانت تلسع أحشاءها عندما كان يمر والدها ليراها سريعاً أمام المدرسة أو في منزل جدتها... كم كانت تشتاق إلى وجوده معها وكم كانت تتمنى أن تعود بها الأيام قليلاً لتستيقظ صباحاً على حنان صوته و نديّ قبلته وقد حرمت منهما نتيجة طلاقه من والدتها، وانتقالها للعيش بعيداً عن عالمه الجديد.

بماذا عساها أن تفكر، في الغفران أم في النسيان أم في تجاهل فعل زوجها ووجوده؟ بماذا تفكر... في أنوثتها المهانة أم في كرامتها المراقة ومشاعرها المذبوحة؟ بماذا تفكر والتفكير يلزمه عقلٌ سوي وقلبٌ سليم وهي لا تمتلك لا هذا ولا ذاك.

ثم... أقبل المساء، معلناً وقت الكآبة فارتبكت أفكارها. ساد السكون مجدداً بعد أن خلد الولدان إلى النوم وعاودتها نوبة الحزن، فجلست تنتظر، ولكن إلى متى؟ وهل سيعود؟

حاولت أن تفبرك بعض الجمل الرنانة، لتحفظها عن ظهر قلب وترمي بها في وجهه عندما يعود، ولكنها كانت تعلم جيداً أنها لن تتذكر منها حرفاً واحداً عندما ستقف أمامه. فلحضوره وقعٌ غريب يربك لسانها ويشي بضعفها. ولكنها ستحاول هذه المرة أن تتخطى تلعثمها وستقف له كما لم تفعل قط في حياتها.

قبل المطر بقليلٍ عاد... بعد رحيل الأشواق، وأفول الحب... عاد وكأن شيئاً لم يكن.

كان الوقت قد نفد مللاً على نافذتها، وغابت عن عينيها كل خيوط الأمل. بلحظةٍ مباغتة، فتح الباب ودخل، فتهاوى عند قدميه خوفها وارتعش قلبها. لم تتوقع مجيئه بهذه السرعة.

ماذا تراه فعل بكل هذه الساعات من الأمس إلى اليوم؟ هل تزوج فعلاً أم أنه كان يتهيأ نفسياً لهذه الخطوة بعيداً عن عائلته؟ وهي؟ أين عساها أن تكون الآن تلك ال...؟ هل تركها في غياهب الشوق وحدها وعاد؟ هل ترك قلبه حارساً عليها وعاد بجسدٍ تصفر فيه رياح الحنين إليها؟ امتلأت عيناها بالأسئلة وهي تقف أمامه، تنتظر منه جواباً، أي جواب، فقد نفد صبرها...

وبخطواتٍ مثقلة، دخل... اقترب منها قليلاً وألقى التحية... خلع سترته الجلدية

السوداء، وبيدٍ متعبة ألقى بها على الكنبة ثم جلس، رأسه إلى الخلف وقدماه فوق الطاولة، وكأنه يقول لها «أرجوك، أنا منهكٌ ولا رغبة لي في الكلام». ولكن... كيف يمكنها الانتظار من أمضت أربعاً وعشرين ساعةً تنتظر حتى نفدت كل ذخيرة صبرها؟

نظرت إليه سريعاً فوقع نظره أسير عينيها. حاول الإفلات من قبضة نظراتها ولكنه فشل. كان الحزن يرقد في قعر عينيه، يناديها. هو حتماً توقيتٌ لا يقاوم... ومع أنها لم تعتد يوماً استغلال لحظات ضعفه وإجهاده، إلا أنه لا يمكنها الانتظار حتى إشعارٍ آخر.

نظرت إليه والعتب يفيض من عينيها، فانساب الكلام رقراقاً على شفتيها، دون أي جهد.

سألته بهدوء: «ما اسمها؟ هل أعرفها؟»

فأجابها بهدوءٍ مماثل: «وما الفرق في ذلك إن كانت النتيجة واحدة؟»

«وما هي النتيجة؟ أنك تزوجت بها؟ أم أنك تحبها؟ أم أنها هجرتك...»

لم يجب فتابعت كلامها بعصبية «كم مرةً خنتني معها؟ منذ متى وأنت تستغل جهلي وصمتي؟ منذ متى؟... هل فكرت يوماً كيف أشعر عندما تجالسني وفكرك معها؟ أم عندما تحدثني وأنت تنظر في عينيها؟ هل تخيلت يوماً حجم الألم الذي يعتصرني وأنا أشتم رائحتها على جسدك وفي أنفاسك وأنت نائمٌ ملء جفنيك قربي؟ أم هل تصورت تلك الخيبة التي تتملكني عندما أنظر في عينيك بحثاً عنك فلا أجدك. وإذ بك رجلٌ غريب عني فلا أنت أنت، ولا عيناك عيناك. هل أصبحنا غريبين إلى هذا الحد؟ وهل كانت هي النتيجة أم السبب لكل هذا النفور بيننا؟...»

بكلماتٍ قليلةٍ موجعة أعادته عشر سنواتٍ إلى الذاكرة، ورممت أمام عينيه ما تحطم منها بفعل الزمن، استحضرت قليلاً ذلك الحلم الجميل الذي عاشاه معاً ذات يوم، وذكرته بثمرتي الحب الذي جمعهما في كنفه، ولكن عبثاً... فلقد اختار الصمت ملجأً له. كان يستمع إليها ببرودٍ شديد، وكأن في آذانه وقراً. لم تهزه دموعها كما توقعت ولا آلمه حزنها، وكأنه في آخر مراحل الموت العاطفي.

حدق إليها وقد استسلمت أخيراً للبكاء وقال لها: «لقد سبق ووعدتك أني لن أتخلى عنك فأنت ستبقين زوجتي وأم أولادي حتى وإن تزوجت امرأة أخرى». لكنها قاطعته بحزمٍ لتجيب «وأنا أرفض أن أكون رقماً في سجل حريمك، وأرفض أن تشاركني فيك أخرى. لقد وهبتك ذات يومٍ عمري وسيبقى طوع يديك ما شئت ذلك، ولكني في النهاية امرأة، لا تقوى على رؤيتك في حضن أخرى، والخيار لديك الآن، إما أنا بكل سيئاتي وإما هي بكل حسنها، وما من خيارٍ آخر. فكِّر ملياً يا عزيزي ففي الأمر ما يستحق العناء... فكِّر ملياً، وإن استعصت عليك الحلول، فعد بقلبك إلى الذاكرة، أنعشها قليلاً، واستشرها في أمرك فإن لها قلباً لا ينسى وحكماً لا يخيب. لا تضيِّع الفرصة التي بين يديك، فغداً عندما سيتآكلك الندم لن أكون معك، ستكون وحيداً هناك، تصارع الذكريات وتتهم الأقدار، ولكن، لا تنس البتة أن كل ما ستجنيه يداك يوماً هو ثمرة أنانيتك ولن ينقذك منه أحد...»

تركته جالساً على الكنبة، كأبي الهول في صمته، ومضت إلى غرفتها. كانت شبه واثقةٍ بخياره، وواثقةً تماماً بقرارها الذي لا عودة عنه، نظرت إلى المرآة وسافرت في رحلةٍ مع حزنها. تذكرت كم أحبته يوماً، فهل كان جديراً بهذا الحب؟

لن تعاتبه بعد الآن، سيمضي كلٌّ في طريقه، فالحياة لا تتوقف عند أحد... ستكمل دربها وستحيا دائماً من أجل ولديها. أما هو... فستتركه لذاكرته، ولا بد للذكريات من

أن تؤجج يوماً نار الحنين ونار الندم...

في مهب الحب

لست أدري كم من الوقت مرّ وأنا واقفةٌ أمامك أحدق فيك، ولست أدري كم من العمر انقضى، ربما عمرٌ بأكمله، وأنا أنظر في عينيك وكأني أراهما للمرة الأولى.

للحظةٍ وأنا أمامك نسيت كل شيء. نسيت كل تفاصيل حياتي الساذجة، كل الأشخاص الذين عبروها يوماً وكل الرياح التي عصفت بها وغيرت وجهة سيرها.

للحظة نسيت كل شيء ولم أذكر سوى عينيك وكأنهما تختصران ذاكرتي كلها...

كان أيلول... أتذكر أيلول؟ أتذكر تلك اللهفة المجنونة التي كانت تتملكنا كلما دق أيلول بابنا، بعد شهرين من فراقنا الصيفي القسري؟ أتذكرعناقنا المحموم العاصف آنذاك؟ أتذكر كم كنت أكره الصيف... وما زلت.

ها هوذا أيلول، يقف بيننا من جديد، يقرع لنا طبول الخريف. وها أنت ذا اليوم، هنا... مرةً أخرى... وهذه أنا... أقف أمامك، كورقةٍ خريفيةٍ في مهب الريح، تعبث بها السنون تارةً، وتتقاذفها الأقدار تارةً أخرى، ولا يسكنها سوى الذكريات... كنتُ حتى اليوم، ماضياً يتنكر بزي الحاضر ويقتات بأحلام الغد، وكنت أحيا بذاكرةٍ عمرها عمر لقائنا الأول. عمرٌ لا يُحسب بالساعات والأيام ولا يُقاس بالدقائق والثواني، بل عمرٌ حدوده الأشواق وشموعه أعوامٌ عشرة أطفأتها وحيدةً في غيابك.

وإذ بك من جديد، هنا... تجلس إلى طاولة «أيلولنا»، تحتسي قهوة أحلامنا، وتعبث بذكرياتنا... أين أنت منها اليوم تلك الذكريات؟ بل أين هي منك؟

أين هي تلك الصباحات اللاهية التي قضيناها معاً؟ أتراك تذكرها؟ أتراك تذكرني؟ أنا

التي لطالما تحرشت بنعاسك وأرقت نومك؟ أتراني ما زلت أغزو منامك؟

وماذا تراك فعلت بكل تلك الأمسيات الخريفية وحدك... بعيداً عني؟ في بلدٍ آخر لا يشبهنا، وبرفقة أيلولٍ لا يعنينا؟ ماذا تراك فعلت هناك، ولماذا عدت اليوم، بعد كل هذا الوقت؟ فقد كنت على وشك نسيانك... أو ربما ظننتني نسيتك فعلاً ولم أعد أعبأ بالانتظار. هل تخيلت يوماً قسوة انتظارك أعواماً عشرة!؟ هل تخيلت كمَّ الأشواق التي تراكمت على جنبات العمر أعواماً عشرة؟ أم هل تخيلت برودة الليالي التي تجمدت عروقها في غيابك أعواماً عشرة؟ ظننتني حقاً نسيت... ظننتني طويت أحلامنا المشتركة وذكرياتنا العذبة ورتبتها بإتقان على رفوف ذاكرتي... أتأملها من وقتٍ لآخر وكأنها تحفٌ أثرية.

وإذ بك تعود فجأة... بعد كل هذا الوقت، وفي خريف الحب... تعود لتوقظ كل النيران التي لم تخمد فيَّ بفعل الوقت، وكل الحنين الذي كان يصحو بين قيلولةٍ وأخرى، فيغالبه الملل ويندس من جديدٍ في فراشه الكسول. فلماذا تراك عدت، وماذا تراها فعلت بك كل تلك السنين؟ هل روضت أحلامك؟ هل أنهكت أشواقك، وقد كنت سيد الحنين بامتياز؟

وحيدةٌ أنا الآن، أقف أمامك... أحدق إلى عينيك. أبحث فيهما عن جوابٍ لأسئلتي. أبحث فيهما عن ظلّ لتلك الفتاة الشقية التي سكنتهما طويلاً.

وحيدةٌ أنا، مذهولة، أقف أمامك... مجردةً من كل شيءٍ إلا من الحنين. وها أنت ذا، قريبٌ جداً، حبيبٌ جداً، تجلس على مرمى خطوتين من أحلامي، وتنظر إلى البحر كالخاشعين. أهو خشوعٌ حقاً، أم استسلامٌ طوعيٌ لإغراء الذاكرة؟ أم تراه الندم المكابرعلى عمرٍ ضاع منك خلسةً في قبضة المهجر.

أتذكر كم رجوتك حينئذ أن تبقى؟ ألا تتركني وترحل؟ ومع ذلك، لم تبالِ مطلقاً، وآثرت مستقبلاً مجهول الملامح على كل ماضينا المطبوع رغماً عنا في مفكرة الزمن.

رحلت يومئذ ولم تلتفت خلفك، وأقنعت نفسك أن لا بد من الهجرة بعيداً بعد أن ضاقت بأحلامنا الأوطان، وضاقت معها صدورنا اليافعة... أعماك حقدك على غباوة هذا الوطن، على استهتاره بعقولنا، واستغلاله ضعفنا، وأقسمت على الرحيل، ظناً منك أنها بضع سنواتٍ وتعود... بضع سنواتٍ تعيدك إلى الجامعة برتبة «دكتور»، وإلى حبيبتك برتبة فارسٍ مع مرتبة الشرف. ولم يكن في حسبانك أن العمر لحظاتٌ قليلة سرعان ما يتلاشى عبيرها، وأننا نعيش غالباً تحت رحمة ظروفنا، ووفقاً لمزاجها المضطرب... أم أنك لم تكن تعي كيف كان لظروفي أنا تحديداً طباعٌ شرسة وأهواءٌ متقلبة...

رحلت يومئذ ولم تلتفت، وأدرت ظهرك لكل أحلامنا... فهل كنت تتوقع مني انتظار المجهول؟ ربما لو كنت طلبت مني ذلك لامتثلت لك... ولو أنك اشترطت علي البقاء على عهدك لفعلت حتماً... لكنك رحلت بصمت، وأوصدت خلفك كل أبواب اليقين وتركت نافذةً صغيرةً مفتوحةً للذكرى فقط...

وها أنت ذا تعود اليوم... وتقف من جديدٍ أمامي، مقابلاً لذهولي، تحاصرني عن غير قصدٍ منك، وتفكر... بماذا تراك كنت تفكر وأنت أمام البحر، مستنداً إلى حافة صمتك؟ هل كنت تفكر فيّ أنا، تستذكرني؟ تستذكر لقاءاتنا المنقوشة على هذه الرمال الساخنة؟ أتراني عبرت ذاكرتك بعد كل تلك السنين؟ لست أدري.. ولكنني حتماً عبرت تينك الخطوتين، وهرعت إليك كطفلٍ صغير، بسيلٍ من اللهفة، بجيلٍ من الأشواق... فلطالما انتظرتك ولم تأت...

لم أنطق اسمك... أو ربما نطقته، لم أعد أذكر... تعطلت كل حواسي للحظات، ولم يبق منها سوى عيني. كان صمت المفاجأة، وصمت الحنين. ولم أدرك حقاً كم بليغٌ هو الصمت إلا حينذاك، وأنا التي ما اعتادت يوماً إلا البوح، أتراني سأبوح لك؟ أأعرِّي نفسي من قناع النسيان الذي يداري حنيني؟ أأشي لك بقسوة الغربة في غيابك؟

وقفت أمامك ونظرت في عينيك... فإذ بسنواتٍ عشرٍ قد تلاشت من عدَّاد أيامي. كأنها ما كانت يوماً، وكأن الزمن توقف لحظة افترقنا يوماً هنا، أمام البحر، في حضور هيبته. استعدت بلمح البرق كل الجمل التعجبية والاستفهامية التي اعترضتُ بها كلامك، يومئذ، وكأنها جملٌ ضوئية... واستعدت كذلك صيغ التوكيد والنفي والرفض التي راوح في ما بينها حديثك... حتى أني لم أنس حرفاً واحداً من كلماتك، ولا دمعةً واحدة من دموعي وكأن ذلك اليوم لا يعدو أن يكون البارحة، أو حتى هذا الصباح...

أخذتني مفاجأة وجودك ولم أفكر في شيءٍ على الإطلاق... لم أتوقع أن يتحرش بي القدر ويضرب لي موعداً جديداً، مع الحب نفسه، وفي المكان نفسه، ولكن على مسافة أعوامٍ عشرة من حدود ذاكرتي؟... لم أتوقع شيئاً ولم أفكر في شيء. كانت فرحتي أكبر من كل توقعاتي. لم أفكر في ما سأقول لك، لم أكترث لكل ما ستقول، كل ما كان يعنيني هو أنك هنا، بالقرب مني، مرة أخرى... نظرت في عينيك علِّي أجد نفسي فيهما، علِّي أعثر على بصمات عيني فيهما. كم كانتا دافئتين! كما دائماً... تفيضان حناناً وسحراً. كم كانتا ودودتين! تمنيت لو أقبلهما، لو أغفو في حضنهما ولو للحظاتٍ فقط... ولكن، هل كل أمانينا تتحقق دائماً؟ كلا... فأحب أمانينا إلينا، دائماً، لا تتحقق...

نظرت ملياً في وجهي. حدقت إلى عيني وارتسمت في عينيك ابتسامةٌ دافئة... كأنها

تلميحٌ غير صريحٍ إلى حنينٍ ما، أو شوقٌ إلى تلك السنين التي لن تستطيع استرجاعها مهما فعلت.

كأني كنت بالنسبة إليك ذاكرة الوقت الجميل.

شعرت للحظاتٍ أننا استعدنا معاً لقاءنا الأول، في ذلك المقهى البحري. كنت يومئذ هناك، مع بعض الأصدقاء نحتفل بعامنا الجامعي الجديد، وكنتَ عنصراً جديداً، قادماً من عالم الأحلام اليافعة. جلست مقابلاً لفرحتي ورحت تتأملني بنظراتٍ عميقة، كأنك تفك رموزاً نُقشت في عمق أهدابي. لن أنسى ذلك اليوم ما حييت... كيف أنساه وها أنت اليوم تعيدني قسراً إليه، حدقت في عيني بالانبهارعينه، كأنك تعاتبني، أو كأنك تعاقبني...

شعرت للحظاتٍ أن لهفتي عليك أكبر بكثيرٍ من قدرتي على التعبير عنها. وربما توقعت منك أن تبادلني بعضها، بعض جنونها واشتعالها... فلم أكن أطمع بأكثر من ذلك. ولكني فوجئت بهدوئك القاتل، وكأن من تقف أمامك الآن لم تكن يوماً حبيبتك، ولا حتى صديقتك... كأنك لم تزرع الدنيا فرحاً معها، ولم تشعل قلبك يوماً موقداً لها. كأنك لم تنفق أربع سنواتٍ من شبابك عند بابها ولم تخبئ سوسنات حبك في عينيها... حدقت إلى عيني، وطافت ابتسامةٌ خجولةٌ على سطح عينيك فقط... ربما ظننتُ بغباوتي أنك ستعانقني، ستغمرني، كما كنت تفعل دائماً؟ ولكنك لم تفعل... واكتفيت بابتسامةٍ وتحية.

فاجأني برودك هذا بعد فراقٍ طويل، أربكني فعلاً، وتجاذبتني الأفكار الحمقاء...

أيعقل أنك أسقطت الزمن من حساباتك إلى هذا الحد، فأضحت عشرة أعوامٍ كعشرة أيامٍ، لا تشكل فرقاً لديك؟ أم تراه النسيان، تسلل إليك على عجل واغتال قلبك،

فتناثرت شظايا ماضينا هنا وهناك، وأصبحت أنت بلا ذاكرة قلب، وأمسيت أنا امرأةً كأي امرأة، تعبر عينيك سريعاً، فلا قلبك يسقط أرضاً ولا جفنك يرف شوقاً؟...

ابتسمت لي بإلحاح، تلك الابتسامة الخجولة الكسلى. وأدركت حينئذ كم غبيةٌ أنا... كيف تخيلت أني نسيتك يوماً؟ كيف خُيِّل إلي أني قد أنساك فعلاً؟ ها أنا أراقب ضجيج البسمة على شفتيك ويغمرني فجأةً شعورٌ بالحزن، عميقٌ عميق... كأني الآن خسرتك، يوم التقيتك من جديد. شعرت بحجم الهزيمة فعلاً، تذوقت مرارتها، وكأنك كنت خسارتي الوحيدة.

كأني انتظرتك منذ دهرٍ لأعلن لقلبي لحظة لقائك أني خسرتك. كأني كنت أحتاج أن أغرق في عينيك من جديد لأدرك أني ما عدت أقوى على الإبحار الطويل فيهما وأن كل زوارقي قد أعلنتك خليجاً مغلقاً يستحيل عبوره. أدركت أني أُقِلتُ من ذاكرتك، ربما مع حسن سلوكٍ في الحب، ولكني أُقلت إلى الأبد، وها أنا اليوم أوقّع إخطار إبعادي عن عينيك...

وانقشع الضباب فجأةً عن ناظري... وتبينت أخيراً سبب هدوئك أو ربما برودك. فها هي ذي «أخرى» تقف بيننا... تحتل قلباً كان أرضي وتعبث بابتسامةٍ كانت يوماً سكني. لمحت ظلها في عينيك، شعرت بنبضها في ابتسامتك، وكأن شفتيك تختزنان أحمر شفاهها. رأيتها... تطل من عمق نظراتك، تناديني، تقول لي: «أفيقي من وهمك سيدتي... لست أنت... لم تعودي أنت... أنا الآن من يفترش مقلتيه، أنا من يداعب نومه، أنا من يسبب حزنه.»

شممت عطرها يفوح من أنفاسك قوياً، شغوفاً. أيشبه عطرها عطري؟ ألها لوني ذاته؟ أم تراك نسيت كم كنت تهواهما «عطري ولوني»؟

وتمنيت لو أني لم ألتقك مجدداً. لو أنك بقيت في مخيلتي حلماً مستحيلاً، أو ماضياً دفيناً. لو أني أشبعت ذاكرتي بعبق حنينك، لو أني أقفلت بابها على وهج نظراتك تلتهمان عيني كما لحظة التقينا أول مرة، لو أني اكتفيت منك بشبح ابتسامة باهتة الخطوط. تمنيت لو...

لو أني أبقيت لنفسي بعضاً من كبرياء وأنا أُمنيها بأنك ربما تذكرني كما أذكرك... ربما تنتظرني كما أنتظرك. ماذا سأخبر نفسي الآن؟ بماذا أنبئها؟ بأني ما خطرت يوماً ببالك ولا تلقيت غيابياً معايدةً منك في ذكرى مولدي؟ وأنا التي كل عام أطفئ شمعة عيدك وحدي.

لم أذكر حقاً كيف غادرتك. هل تصافحنا؟ هل تواعدنا بلقاءٍ كاذب؟ هل تبادلنا أرقام هواتفنا؟ لا أكاد أذكر من لقائنا هذا سوى عينيك وألمي...

وها أنا ذا، لا أزال أذكرك كل صباح... أنتظرك كي تأتي، فتعبرني عيناك، وأنا أحدث البحر عنهما. تحتسيان معي قهوة حبنا وترحلان. وأبقى هناك وحدي، عند الموج، أداعب طيفك الدافئ بصمت، وأحفر فوق الرمال خطوط ابتسامتك.

هاتفٌ... وأشواق

أنهكها النعاس، فاستسلمت أخيراً لإغفاءةٍ قاتلة. كانت عقارب الساعة تعانق الثانية صباحاً. سكونٌ مطبق وسماءٌ مقمرةٌ تغري بطول السهر. كانت تهوى الخلود إلى النوم عندما يستبد بها فجأةً، دون سابق إنذار. فتصبح معلقةً لدقائق بين الحلم واليقظة، تشعر بكل ما يحيط بها، دون أن تشعر به حقاً.

استفاقت فجأةً كمن ارتطم بحلمٍ سريع. كانت لا تزال تجلس على كنبتها، مكورةً على نفسها كقطةٍ كسلى. ابتسمت للحاسوب المشرّع أمامها، يسامرها منذ ساعات طويلة. أغلقت بريد رسائلها وتابعت رحلة نعاسها على الكنبة خوفاً من الأرق المحتمل إذا ما نهضت للنوم في سريرها.

كانت قد بدأت تعاني في الأيام الأخيرة بعض الخلل في نظامها الليلي: سهرٌ بجرعاتٍ زائدة، أرقٌ يقطِّع أوصال نومها، وشرودٌ يرمي بها في بؤرةٍ من أفكارغريبة، تجهل مصدرها. كأن الليل يصبح مرتعاً للأفكار المتشردة، كتلك التي تتزاحم في منعطفات الذهن أثناء الصلاة. تستثير المخيلة وتنهك التركيز حتى على أتفه الأمور.

عانقت وسادتها كمن يعانق حبيباً وأغمضت عينيها على صورةٍ هي وحدها تعرفها، هي وحدها تستشفُّ ألوانها و تستشعر دفئها.

استفاقت صباحاً على صوت منبهٍ داخلي يقول لها: «هيا، أفيقي، قد حان وقت الحب...» كان الجو رائعاً وعبق نيسان يفوح من كل مكان. انتزعت النعاس من عينيها وارتدت نشاطها. ثم خرجت، تحتسي قهوتها على الشرفة، هناك، حيث يسكن صوت فيروز، حيث يتناثر كحبيبات الندى على أوراق الغاردينيا، فتنمو بسرعةٍ

عجيبة.

كانت تهوى فيروز، تهوى نيسان، وتهوى الغاردينيا... كأنها وجوهٌ ثلاثةٌ لعشقٍ واحد.

راحت تنظر إلى ساعتها مرةً بعد أخرى كمن يترقب حدثاً ما، ثم تغرق من جديد في كرسيها، تنتظر. وما هي إلا لحظات حتى رقصت عيناها فرحاً: ها هو بريد هاتفها يزف لها رسالة حب. فتحت الرسالة وإذ كل شيءٍ فيها يقرأ، يغني، ويحلم... كانت جملةً مقتضبة تختصر بكلماتها الثلاث أبجدية كل اللغات: «صباح الورد. اشتقت إليك.»

هي ليست بالطبع الرسالة الأولى التي تتسلمها، فمنذ مدة وعطر صباحاتها بعض كلمات، منذ أيامٍ وشمسها تشرق من عينيه، من عمق عينيه، تودعها رسالة شوقه وترحل...

انتهت قهوتها ولم تنته من الرد على الرسالة تلك. أعادت كتابتها مراتٍ عديدة كمن يكتب نص استقالة. أرادت أن تستفيض في التعبير، أن تحمّلها كل أشواقها، كل دقائق ساعاتها، فهي أنثى تهوى التفاصيل وتكره الإيجاز، خاصةً في الحب.

توصلت أخيراً إلى صيغةٍ نهائية، وأرسلت إليه رداً مختصراً جداً قياساً بما تشعر.

«صباحك ورد، اشتقت إليك كثيراً مع أنك لم تغادرني بعد. وها أنا أحتسي معك فنجان قهوتي. لا تنسني...»

وما هي إلا لحظات حتى انتابتها قشعريرة الندم. تلك التي باتت ضيفاً يومياً، يأتيها بغتةً كلما كتبت له عبارةً مماثلة. كأن ضميرها لا يغفو إلا للحظاتٍ قليلة، يخطفها الحنين أثناءها ويغتصب بوحها، فتوقع له صك اعترافٍ عشقيٍ عبر هاتف الحب.

كانت تشعر دائماً أنها تغدق عليه باعترافاتها له وتستفيض بشرح أشواقها. فيما هو

قليل الكلام، موجزٌ في التعبير.

حاولت مراراً أن تقنع نفسها بأن ذلك يعود إلى الفرق بين عالمين متباعدين تماماً: قلب المرأة ومنطق الرجل. أو ربما هو الفرق بين أنثى تحب كل مرةٍ كما لو كانت أول مرة، ورجلٍ استهلك قلبَه الحبُّ الأول ورمى به فارغاً على شفير الصمت، فلم يعد صالحاً لا لحبّ آخر، ولا لبوحٍ آخر؟

أتراها أخطأت في فهم مشاعره ورسائله، وظنته مغرماً بها، فيما يعتبرها هو زميلةً كسائر الزميلات، ليس إلا؟ أيعقل أن تكون زميلةً وحسب؟ لماذا يكلمها إذاً كل يوم من الطرف الآخر على الكرة الأرضية، ليطمئن عليها فقط؟ لماذا لا يكتفي بتلك الرسائل الالكترونية التي يرسلها إليها كما يفعل مع الجميع؟ أليس لأنه يشتاق إلى همس صوتها؟ ولماذا كل هذا الحنين الذي تختزنه نبرته وهو يقول لها «اشتقت إليك».

يا لهذه الكلمة العجيبة!... كم تبدوعاديةً بالنسبة إلى الآخرين! وكم تبدو صالحةً للاستعمال اليومي مع جميع الأهل والأصدقاء، لكنها معه هو تحديداً تتخطى كل حدود المألوف وتلامس سماء الحب. عادت بذاكرتها أشهراً قليلةً إلى الوراء، فربما كانت هذه العبارة هي المفتاح السحري لكل تلك المشاعر التي تأججت في قلبها منذ وقت. ربما هي كلمة السر التي ألهبت حنينها وأيقظت كل تلك الحرائق في أعماقها. لو أنه يعلم كم تستفزها «اشتقت إليك» تلك؟

كم تحاول أحياناً أن تستنطق هذا الشوق الذي يزعمه، كم تحاول أن تتلصص على ملامح صورتها في عينيه حين يشتاق إليها.

كانت شغوفةً لتعرف كيف يراها حقاً في لحظة اشتياق؟ بأي لونٍ يرسمها؟ بأي دفءٍ

يلامس طيفها؟ كيف يحسها؟ متى يؤرقه الحنين إليها، ليلاً أم نهاراً؟ بماذا يناديها في سره؟

كان يتملكها فضولٌ كبيرٌ لأن تحظى بإجابة عن أسئلتها تلك، فهي لا تعرف الكثير عن طباعه في الحب، مع أنه يبدو خبيراً بلوعات النساء.

ولكن... سرعان ما كان يتدخل عقلها ليلومها على تسرعها باستهلاك عبارات الحب دون وجه حق، وليطالب قلبها بوقفٍ فوريٍ لهذا الفلتان العاطفي الفاضح...

ولكن كيف؟ تساءلت مراراً... هي تشتاق إليه فعلاً، مع أنه لا يغوص عميقاً في الحديث عن مشاعره معها. جل ما في الموضوع أنه أصبح يهاتفها يومياً ليقول لها كم يشتاقها وكم يتوق حقاً إلى رؤيتها... فلماذا الآن؟ لماذا يختار هذا التوقيت بالذات؟ لقد كانت تراه بشكلٍ يومي ولفترةٍ طويلة، لم يحدث أن تطرق إلى اعترافاتٍ مماثلة... ربما لأنها كانت على مقربةٍ من قلبه وفي متناول عينيه؟ أما الآن، وقد ابتعد عنها...

استفاقت من سؤالها على افتراض أن يكون شعوره ذلك مزيفا وموقتاً... ماذا لو كان يتوهم، أو كان يعيش فراغ الغربة وحسب؟ ماذا لو كان يسكنه الخواء بعد أن غادر حضن الوطن. فالمرء لا يعي أهمية بلده ولا يتحسس دفئه إلا عندما ينأى بعيداً عنه... حينئذ يسقط إعياءً لفقده كل من تعوده وما اعتاده حتى أنه قد يحن إلى وجوه لم تخطر بباله يوماً...

أما هي... فإنها تشتاق إليه فعلاً. لطالما حاولت مراراً وتكراراً أن تتجاهل أشواقها تلك، وأن تصمد أمام إغراء الهاتف عندما يدعوها لمكالمته، إلا أنها تعود وتستسلم سريعاً، دون أن تفاوض حتى، وتترك خلفها شبح الكبرياء مخذولاً، وهي تقنع نفسها

بأن لا حاجة لها به، فالحب لا يعرف الكبرياء.

لطالما فكرت في علاقتهما القديمة الحديثة. لطالما تساءلت عن سرها، عن سر توقيتها الغريب. فهي تعرفه منذ وقتٍ طويل. كانت تراه كل صباحٍ، ولأكثر من سنتين، يمر بمكتبها، يلقي عليها التحية ويبدأ يومه مجاوراً لها، من المكتب المقابل، يفصل بينهما حائط وهمي، ونافذةٌ تتقاسمها النظرات من حينٍ لآخر.

لم تكن تشعر أنها تحبه، ولم تتوقع أنها قد تعيش يوماً على وجبة رسائله الهاتفية. فقد كان بالنسبة إليها زميلاً مثل الآخرين، يبادلها الاحترام والأدب، وبعضاً من أشياء ربما كانت تجهلها يومئذ، لكنها الآن تدرك معناها فعلاً. فهي بلا شك تلك «الكيمياء» التي يتحدث الناس عنها. تلك المشاعر الغريبة التي تلتصق بأعماقنا، تتصاعد نغماتها، وتتمازج ألوانها ولا يشتعل وقودها إلا بولاعةٍ مخصصة، يمتلكها أشخاصٌ مشابهون، لديهم ذبذباتٌ جاذبة ونغماتٌ متطابقة.

لعلها أحست بتلك «الكيمياء» من وقتٍ إلى آخر، أو عاشتها مع عددٍ من الناس غيره. ربما كانت ترتاح أحياناً إلى بعضهم، بلا مبرر... إلا أن «كيمياءها» معه كانت من نوعٍ آخر، مختلفة وفريدة... فقد كانت تستمتع دائماً بقضاء وقتها إلى جانبه، وكانت تخبئ الكثير من أخبارها له وحده، دون أن تعرف السبب. كانت تقرأ في عينيه دائماً ما يجول في فكره دون حاجةٍ لأن يقول شيئاً. ثمة شعور ما كان يتفاعل بينهما بصمتٍ وسكون... فقد كان دائماً ملتهب النظرات، وكانت في حضرته أنثى، دون أن تشعر.

أتراها كانت على موعدٍ مع حبه منذ ذلك الوقت؟ أتراه وصل إلى محطة قلبها متأخراً؟ أم هو القدر، خطط بإحكام... جرَّعها لون عينيه حتى أدمنته، ثمَّ اختار له الرحيل.

غادرت أسئلتها سريعاً وانطلقت إلى عملها. فهو ملاذها الوحيد بعيداً عن قبضة عينيه. مكانٌ قلما يغزوها فيه لكثرة انهماكها بأمور المراجعين وشكواهم.

باشرت العمل. أوراقٌ ومستندات، توقيعاتٌ وأختام. وبرغم كل ذلك الروتين اليومي، كانت تهوى عملها وتخلص له.

استهلكت الملفات والاوراق معظم وقتها وطاقتها. كان هناك دائماً المزيد من المراجعين، لكنها كانت تحتاج إلى بعض الراحة، بعد كل هذا الوقت أمام الحاسوب. ألقت برأسها إلى الخلف كمن يستغيث بإغفاءة، وأغمضت عينيها للحظات.

وفي غمرة التعب، غمزتها عيناه. تسلل نظرها إلى هاتفها مراتٍ عديدةً ووسوست لها نفسها الأمارة بالحب: «هيا، كلميه، لا تنتظري أن يهاتفك هو، فالحياة لا تنتظر أحداً. استمتعي بأشواقه وهو يهمس لك بها. عيشي الحب ولو وهماً، فربما يحتار هو أيضاً في المبادرة وينتظر الضوء الأخضر. لا تترددي أبداً...»

كان يروقها أن تصغي إلى هذا النداء الملح، كان يروقها أن تستمع إلى همسه يعانق قلبها، يشتاق إليها ويشتهيها. وفكرت أنها ربما تهدر وقتها بعيداً عنه. فما المانع في أن تكلمه هي، أن تبادله اهتمامه وأن تبوح له بشوقها؟ ما المانع في أن تهاتفه متى أرادت، دون حسابٍ لنظرته الشرقية إليها، واعتباره ذلك استهتاراً بأنوثتها وكرامتها. ما المانع في أن تعيش إحساسها به دون اعتباراتٍ لمجتمعٍ يفرض عليها أن تنتظر اعترافاته الغرامية أولاً... فلا يجدر بالفتاة أن تبادر. عليها أن تكون المتلقية دائماً، لا المبادرة، خصوصاً في ما يختص بالمشاعر والحب...

أعيتها الأسئلة التي لا جواب لها وأرهقها هذا الصراع اليومي الذي لا ينتهي. حزنت على نفسها وهي تشعر أنها مسلوبة الإرادة، مكبلة القلب. فهي تخشى أن تفقد كل

هذه المشاعر الوردية إن هي أطاعت عقلها وصمتت... تشعر بالذعر لمجرد أنها لن تستيقظ على رسائل حبه إن هي استسلمت لواقعها. ولكن... كلما تذكرت صفو عينيه، سرت في جسدها نسمات الهيام، وجاء صوته من خلف السحب، عميقاً ودافئاً يدغدغ ذاكرتها وينعش أشواقها.

وفي غمرة هذا الجدل الصامت، رن جوالها معلناً انهزام مقاومتها، فها هو اسمه على الهاتف يناديها، يربكها ويستصرخ حنينها. وهيهات أن تخذله. لا، لن تدعه ينتظر. لن تغتال أشواقها. ستكون حبيبة قلبه، ستسكن في تنهدات صوته ولن تكترث لأي شيءٍ آخر.

ارتعشت يداها وهي تحتضن تلك الآلة العجيبة واستسلمت لهمسه وهو يقول لها:

«اشتقت إليك...»